روايات عبير

sarah

آن هامبسون

حُبٌّ في الظلام

www.liilas.com/vb3
Sarah

١٢

liilas.com

روايات عبير

sarah

حب في الظلام

البصر نعمة لا تعوض ، كل شيء آخر يمكن اصلاحه سوى فقدان الرؤية ... ان يغرق العالم من حولك في الظلام الدامس ، خاصة بعدما عرفت هذا العالم وعشت فيه ... وكيف ان تفقد بصرك من أجل شخص تحبه فاذا به يهجرك غير آبه لمصيبتك؟

هذا ما حصل لليوناني بافلوس ديمتريوس الذي وقع في حب الانكليزية لوسيندا ...

وكانت تيسا شقيقة لوسيندا تحبه في السر وهو لا يعبأ بها، فعندما علمت بقرب موعد خطبته لأختها غادرت بلدها لئلا يؤلمها ما سترى ... وعندما عادت وجدت لوسيندا مخطوبة الى رجل آخر، فماذا حصل ؟ وهل تذهب تيسا للبحث عن حب ضائع مع رجل لا يرى ؟

www.liilas.com/vb3 sarah
liilas.com

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

AN EAGLE SWOOPED

© HARLEQUIN ENTREPRISES B.V. 1970
© 1982 Harlequin (Cyprus) Ltd.

liilas.com

المراسلات :

Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece.

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

sarah

١- صفعة من ورد

عادت تيسا من رحلتها الأخيرة الى اليونان ولكن ترى حتى متى؟ ودارت بسيارتها الى داخل الممر، قاطعة الياردات القليلة فخرجت الأسرة بأكملها - تقريبا - لترحب بها •

وعانقت أمها، وأخويها الصغيرين، وكان آخر من احتضنها أبوها، بقامته الطويلة، وشعره الشائب، وسمة الأسى الدائم التي تعلو وجهه الشاحب• وسألها في أمل:

"هل تعودين الى الوطن نهائيا ؟"

"ربما ما أروع أن أراكما يا أبي ويا أمي، وانتما أيها الحبيبان، كم كبرتما !"

ودخلوا البيت، فذهبت الأم السيدة بلين الى المطبخ لتعد الشاي، وانصرف الغلامان لاتمام واجبهما المدرسي• وجلست تيسا وأبوها برهة يتحدثان عن عملها، وأصدقائها في الخارج، والأماكن التي شاهدتها• ثم تساءلت في تردد:

"لوسيندا، أهي••• هل يقيمان على مقربة؟"

وقبل أن يجيبها أبوها، اقبلت أمها بالشاي• وقالت:

"تحدثي مع أبيك، ريثما أعد فراشك، لأننا توقعنا أن تصلي غدا•"

تطلعت الى امها مبتسمة، وقالت لنفسها• انها

www.liilas.com/vb3
Sarah

كالعهد بها، شاب شعرها في بعض الأماكن ولكنه جذاب التنسيق، وعيناها عسليتان رقيقتان، ولصوتها سمته الخاصة وتذكرت تيسا أن الطبيب قال مرة وهو يضحك: أصيبت الحبال الصوتية بعيب، ولكنه من أفتن العيوب!

كان صوتها صافيا، خافتا، عذبا، كالموسيقى في ليلة ساكنة الهواء. وأورثت السيدة بلين ابنتها هذا الصوت الجميل. وأورثت تيسا وحدها شكلها. أما ابنتها الأخرى لوسيندا فتشبه جدتها، التي كانت في شبابها رائعة الجمال، ذات شعر ذهبي شاحب، وعينين كالزهور العنبرية الحديثة التفتح.

وعادت السيدة بلين تقول:

"سأسوي فراشك.. وستنزلين في غرفتك نفسها مع لوسيندا."

وشحب وجه تيسا، وغشيتها رجفة مفاجئة، وقالت:

"لوسيندا؟ ألم يتزوجا بعد؟"

وتبادل والداها نظرة، ثم قالت أمها متعجلة:

"سأترككما لتتناولا الشاي."

وما هي الا لحظة حتى كان الباب قد أغلق وراءها بهدوء.

"ماذا هناك ياأبي؟ اما زالت لوسيندا مخطوبة الى.. الى بول؟"

"انها مخطوبة، ولكن، ليس الى بول. ألا تسكبين الشاي ياتيسا؟"

"أخبرني بما حدث، أين بول؟"

وتنهد الأب قائلا:

"غبت عامين يافتاتي، وطلبت- بل حرمت علينا أن نوافيك بأية أنباء عن لوسيندا وبول."

"انت تعرف السبب. ما كنت أحتمل:لوسيندا تزوجت.. لوسيندا حامل.. وبول أصبح مزهوا.. الخ."

وهزت رأسها تأكيدا، واضافت:

"كلا.. ما أردت أن تكتبا الي عن هذه الأمور!"

"وقد فعلنا ما طلبت يا إبنتي. كانا في جولة بالسيارة، ووقع حادث بغيض."

واتسعت حدقتاها، وتساءلت:

"حادث؟! هل.. هل مات؟"

وزفرت في أسى، وهو يتفحصها بعينيه، وقال:

"لم يمت. أما زلت تحبينه؟ لا بد أنك تغلبت على هذا يا أبنتي."

فاستحثته قائلة:

"حدثني عن الحادث. اذا لم يكن مات فلماذا لم يتزوجا؟ وكيف أصبحت خطيبة لسواه؟"

"انه أعمى يا تيسا!"

وحملقت، عاجزة عن الاستيعاب.. بول، الشديد الحيوية والاعتداد، المتسامي الواثق! وهزت رأسها قائلة:

"كلا لايمكن أن يكون هذا."

وارتجف صوت السيد بلين وهو يقول:

"عمى لا علاج له، بسبب الحادث.. انصرفت لوسيندا عنه."

ونهضت تيسا ثم جلست:

"هذا غير حقيقي. ثم قالت: كانا مدلهين بحب جنوني.."

فهز أبوها رأسه وقال:

"من جانب واحد، كما تبين. غضبنا جميعا من لوسيندا واستنكرنا تصرفها اذ ذاك، ولكنا بعد فترة استسلمنا. ولعله كان أكثر مما ينبغي أن نتوقع أن ترتبط بقية عمرها بأعمى.. انها فتاة جميلة جدا."

أجل، وكانت تيسا عادية المظهر. لهذا لم يعد بول يرى سوى لوسيندا بعد أن التقى بها. وعادت تسأل اباها، فأجابها:

"كان هذا منذ عام انقلبت السيارة وكان بول يقودها بسرعة كبيرة.."

"ما اعتاد بول الاسراع، كان شديد الحرص في القيادة.."

"الواضح أنه كان مسرعا في هذه المرة، ومسرعا جدا.."

وتوقف، وتغضنت جبهته، واستأنف:

"رفضت لوسيندا أن تقول أكثر من هذا، ولكنها أصرت على أنه كان مسرعا جدا.."

وفكرت تيسا..ما كانت لوسيندا لتكذب ومع ذلك.. واستعادت تيسا ذكرى لقائها ببول، الليلة التي غيرت حياتها بأسرها، وجلبت في أعقابها تعاسة لاسبيل لوصفها. فقد عرض بول أن يقلها الى منزلها. ولاحظت حرصه في الطريق، والسرعة المأمونة التي التزمها في القيادة. وعادت تسأل اباها:

"أتقول أن السيارة انقلبت؟ الواضح أن لوسيندا لم تصب بضرر."

"فأجاب بأنها ارتمت خارج السيارة التي اشتعلت فيها النيران، وأصيب بول بحروق، كان غريبا أنها اقتصرت على يديه، ولم تمس وجهه. ومع ذلك فقد بصره!"

"قالوا انها الصدمة العصبية، ويبدو أن الصدمة الشديدة قد تسبب العمى."

وشعرت تيسا بأن في الأمر شيئا، ولكن اسئلتها لأبيها لم تأتها بجديد، كانت لوسيندا تلوذ بالصمت ازاء الحادث منذ وقوعه، ولكن، ألا سبيل لشفاء هذا العمى؟ ان العمى الناتج عن صدمة عصبية كثيرا ما يشفى!

"بول غني كما تعلمين، عاده كل طبيب مشهور وقضى في المستشفى وقتا، ولكن بدون جدوى. اجمع الأطباء على أنه لاسبيل للشفاء!"

قالتها تيسا وكأنها تحدث نفسها:

"وهكذا تخلت عنه لوسيندا؟"

واكفهر وجه أبيها، ولكنه لم يتكلم، فمضت تسأله أين بول حاليا؟ قال وهو يضع قدح الشاي أمامها:

"رحل الى الخارج، ليقيم في جزيرة يونانية، فيما أظن."

وما كان أبوها يعلم أية جزيرة بالتحديد، ولكنه رمقها بقلق، وقال:

"إنسيه يا أبنتي. ابحثي لنفسك عن شاب لطيف. أثبتت الأمور أن بول ليس مقدراً لأي منكما."

فحملقت في قدحها، وندت منها زفرة.

"أتقول أن لوسيندا خطبت مرة أخرى؟"

"لشاب لطيف جداً، يكبرها بعام، في السابعة والعشرين. وهو متيم بها، وسيتزوجان في شهر حزيران /يونيه."

كان كل امرىء يهيم بلوسيندا، بجمالها الشاحب، وبمقدرتها على الظهور بمظهر الوادعة وغير المتصنعة.

"هذه الجزيرة اليونانية، أليست لديك فكرة عنها؟"

"كلا. وقد لاتكون يونانية، ولكنها جزيرة قطعا."

وعبست. لماذا الالحاح لمعرفة مكان بول. وما الذي فعله بها في سويعات قلائل؟ كانت خالية البال حتى تلك الامسية التي دخل فيها حياتها. وعاد أبوها يقول:

"إنسيه يا حبيبتي. ستتزوجين.."

فقاطعته بصوت متهدج:

"لن أتزوج أبدا يا أبي."

وقبل أن يتكلم أقبلت لوسيندا، قائلة:

"تلك السيارة.. لمن؟.. تيسا! ما أطيب أن أراك! لكم أصبحت سمراء! هذا يجعلك جذابة جدا."

اسئلة كثيرة وابتسامات مسرفة ومع ذلك فما كبدت لوسيندا نفسها عناء كتابة رسالة واحدة لها خلال عامين! وفجأة، امسكت لوسيندا عن الكلام، وتبادلت وأبوها

نظرة، ولكن ذكر بول لم يرد حتى انفردت الشقيقتان في غرفة نومهما: لوسيندا تستعد للقاء جيرالد، وتيسا لزيارة أحد أصدقاء بول.

قالت لوسيندا وهي تسوي شعرها:

"احسبهما أخبراك؟ لقد كتما الأمر لأنك أخبرتهما بأنك لا تريدين سماع شيء عن بول وعني."

فقالت تيسا بصرحة:

"كان هذا خليقا بأن يؤلمني. ولا يبدو أن أبي يعرف تماما ما حصل."

"ماكان بوسعي ان أروي الكثير، كنت فاقدة الوعي. هل أخبرك أبي.. بول صار أعمى!"

وأجفلت تيسا للهجة اختها غير المكترثة ازاء فاجعة بول، وهمست بصوت أجش:

"كيف استطعت أن تهجريه؟"

فهتفت:

"لا تعظيني، كفاني ما لقيت من أمي وأبي، كنتم جميعا تفضلون أن أتزوجه، ولكني الوحيدة التي كانت تتعذب. تصوري قضاء عمرك مع رجل لايملك أن يبصرك!"

وسوت خصلة شعر شاردة، وتفحصت صورتها في المرآة وأردفت:

"ما جدوى أن أبدو هكذا وهو لا يراني؟"

أجل جميلة جدا. لاعجب أن بول لم يلتفت بنظرة الى تيسا، منذ أن قدمته الى اختها. وواجهت تيسا صورتها في المرآة وهي غير راضية عن شكلها، كانت عظام وجنتيها مرتفعة، ولكن الطبيعة لم تصقل انحناءاتها بابداع، وكان فمها بشكل وحجم فم لوسيندا، ولكنه يفتقر لشيء لاسبيل لتحديده، وهو الفارق بينهما في المظهر. ولكن عينيها كانتا واسعتين، وصادقتين، في أعماقهما العسلية ومضة حنان لم تبد ابدا

في عيني اختها. كما كانت تيسا تنفرد بشعرها الجميل في لون الشهد، تتخلله ظلال من النحاس والذهب، ينسدل على كتفيها نصف متموج. واقنعت نفسها بأنها لم تكن قبيحة تماما، ولكنها بالمقارنة الى لوسيندا..؟

قالت وكأنها تخاطب نفسها:

"ما فهمت الى الآن كيف استطعت التخلي عنه. انه وان أصبح اعمى لايزال الرجل نفسه."

واستدارت لوسيندا غاضبة، وصاحت والدماء تتصاعد الى وجهها:

"ماكنت انوي الارتباط طيلة عمري بأعمى.. ثم، هناك يداه.."

وامسكت مرتجفة، ثم أردفت:

"لابد انهما أصبحتا بشعتين.. لم أرهما، اذ كانتا في الضمادات، ولكني لا أطيق التفكير فيهما. وماكنت لأحتمل أن تلمساني!"

وقفزت الدموع الى مقلتي تيسا، فامسكتها قبل أن تلمحها اختها. وقالت:

"انهما يداه بعد كل شيء!"

فارتجفت لوسيندا ثانية، وتيسا ماضية في حديثها:

"كيف احترقت يداه دون أي من اعضاء جسمه؟"

فعاد الوميض البشع لعيني لوسيندا، وقالت:

"قلت أنني لا أعرف شيئا!"

"أما أخبرك بول بشيء؟ أحسبك رأيته في المستشفى؟"

"أجل، زرته، ولكنه لم يخبرني بشيء."

فغمغمت تيسا:

"لكم يبدو هذا عجيبا! فاطلقت لوسيندا فجأة ضحكة أجشة، وصاحت:"

"عجيبا؟ لماذا؟"

"اذا كان احترق فهذا خطأه، رحماك، لا ترمقيني هكذا، احسبك كنت تتزوجينه لو أنك كنت مكاني·· كنت تقدمين على التضحية بشجاعة، ولكني لست حمقاء بهذه الدرجة·· لم لا تذهبين وتمنحينه عطفك؟ قد يعني بك الآن، بل قد يتزوجك، فلن تقبله سواك!"

وأجفلت تيسا لكلمات أختها، ولكنها سألتها:

"في النهاية·· عندما صارحته، ماذا قال؟"

"تصرف كما توقعت منه·· أعني تظاهر بأنه لا يصدق كأنه لم يستوعب ولكن هذا كان تمثيلا··"

"ما أظن أن بول يستطيع الاصطناع في ظرف كهذا·"

"انك لا تستطيعين ان ترى عيبا فيه·· لعل هذا سيقنعك بمدى غروره، قال انني لو غيرت رأيي واستغفرته، فسيقبل عودتي اليه· ما رأيك في هذا الغرور؟"

"لابد أنه يحبك كثيرا، حتى يستطيع أن يغفر لك ما فعلت به!"

وكانت تيسا تحدج اختها بنظرة متفحصة وهي تستكمل زينتها· فهزت لوسيندا كتفيها، وغصت تيسا بريقها، وهي تفكر كيف ترمي أختها بكل هذا الحب بلا مبالاة! وسألتها:

"وجيرالد·· ما شكله؟"

فأومضت عينا لوسيندا وقالت:

"رائع!·· كل منا مجنون بحب الآخر!"

وألقت تيسا نظرة على الساعة وهي تشعر بغثيان، وذهبت الى الحمام، مبتعدة عن لوسيندا· وفيما هي غائصة في الماء، راحت تستعيد ذكرى اليوم الذي رأت فيه ضرورة الرحيل الى مكان ما، لئلا ترى بول ولوسيندا معا·

وجاءتها الدعوة - في أنسب وقت - للتدريس في ألمانيا· ومنها ذهبت الى تركيا، ثم لبنان، ثم اليونان - وكان

هذا المنصب الآخير لثلاثة أشهر فقط - ثم تاقت للعودة الى انكلترا - وان كانت موقنة بأن رؤية بول ولوسيندا كفيلة بنسف عزمها على الاستقرار في وطنها· وما كان الرجوع الى اليونان فكرة طيبة، لأنها كانت وطنه، وان كان قد عاش في انكلترا عددا من السنين·

ووافاها جو في الساعة السابعة· وهتف في غير تملق:

"انك لم تتغيري·· كنت مستعدا للكتابة اليك، ولكنك لم ترسلي لي عنوانك مطلقا·"

ولم تتكلم والسيارة منطلقة بهما الى حيث كانا يعتزمان تناول العشاء· لم تتكلم الا حين شرعا في العشاء، فبدأت تثير أهم موضوع كان يشغلها:

"انت كنت صديق بول اتعرف ما حدث يا جو؟"

"اذن، فهذا ما سعيت لمقابلتي من أجله؟ كدت افكر بأن صحبتي اجتذبتك· أما زلت تحبينه؟"

قالت متلعثمة:

"وهل يعرف الناس جميعا هذه الحقيقة؟"

فأجاب:

"عندما تهيم الأخت الصغرى بفتى اختها الكبرى، فلا بد أن ينتشر النبأ!"

قالت لنفسها "الصغرى"؟

انها أصغر من لوسيندا بعامين فقط، وأن كانت تبدو أصغر بكثير من أعوامها الأربعة والعشرين· وزم جو شفتيه فجأة وقال:

"حمقاء! ولكن بول أكثر حماقة انا كنت صديقه، ولكنه قاطع كل شخص هنا·"

"أتعرف أين يقيم؟ يقول أبي انه في جزيرة يونانية·"

"كلا، بل في قبرص، له هناك بيت في الجبال· يعيش كناسك، ويعتبر غريب الأطوار·"

www.liilas.com/vb3
Sarah

وتجعد جبينها ... قبرص؟ زارتها ولم تمكث أكثر من ليلتين؛ ولكنها جميلة، وان كان بول لن يبصر جمالها. لن يبصر الجبال، ولا البحر ولا الشواطيء، ولا المدن القديمة المهجورة، ولا الكنائس، ولا الحصون، ولا بساتين البرتقال والسفوح. لايستطيع أن يشاهد غروب الشمس الرائع، ولا الشروق الذي لايقل روعة، قد يسمع وشوشة الأمواج على الشاطيء وحفيف النباتات الجافة والسحالي تزحف تحتها.

وخرجت من شرودها لتسأله:

"ولكن، لنعد الى الحادث، ما الذي جرى بالضبط ياجو؟"

قال بصوت حاد وساخر:

"ألم تخبرك اختك؟"

"كانت فاقدة الوعي، ولا تتذكر أي شيء."

"انها مع ذلك تعرف كل شيء، لأنني أخبرتها!"

وحدقت فيه مشدوهة، وهو يذكر أن بول ظل يومين في المستشفى، قبل أن يؤذن لجو برؤيته، ولبضع دقائق فحسب. وراح يدمدم حتى أقبلت الممرضة فدعت جو للانصراف. وقال جو:

"أتريدين معرفة ماسمعت حقا؟ أنه لايحسن الظن باختك!"

وازاء الحاحها، قال:

"كانت بينهما مشادة، بصدد شاب تلاعبت معه وبول متغيب في عمل ما. وكان يلومها وهما منطلقان في السيارة- فلم تبد ندما، وأمرت بول بأيقاف السيارة فرفض ازاء لهجتها الآمرة. وفي حدة طبعها، أخذت تلوي عجلة القيادة."

وتبدى الذعر في عيني تيسا وارتجفت يدها. وعاود جو حديثه:

"ارتطمت السيارة بسياج حجري وانقلبت واشتعلت فيها النار وأطاحت الصدمة بلوسيندا فوق السياج ولم تصب بغير بضعة جراح وكدمات، ففقدت الرشد برهة ونجا بول بمعجزة وانطرح

على الجانب الآخر، قرب الاعشاب، لكنه كان يعتقد أن لوسيندا في السيارة فارتمى على المركبة المتأججة وهو يناديها، وحاول أحد شهود الحادث ابعاده، لكنه كان يظن أن حبيبته تحترق. ومرت سيارة فانضم سائقها للشاهد وابعدا بول وكانت يداه تتلظيان احتراقا، ومع ذلك ظل مصرا على المحاولة.. لم تصب لوسيندا بسوء لقد فعل كل هذا سدى."

كان وجه تيسا أبيض كغطاء المائدة ونظرت الى رفيقها والدموع تترقرق في عينيها وتساءلت:

"وبصره؟ كيف فقده؟ قال أبي أنها صدمة عصبية."

فأجاب:

"أجل، صدمة الظن بأن لوسيندا ماتت محترقة."

فهمست في رعب واشمئزاز:

"ولوسيندا تركته!"

فأردف:

"وهي الآن في خير حال وخطيبة هانئة، بينما بول..."

وهز كتفيه وقال:

"لم نعرف عنوانه.. فكرت في الذهاب الى قبرص بحثا عنه، لكنني أظنه سيكره هذا."

"ويداه ياجو.. فهمت أنهما في حال سيئة؟"

"عندما رأيته آخر مرة كانتا في الضمادات، ولكنك تعرفين براعة الجراحة اليوم. وأحسبه حظي بعلاج جيد، وانك لتعلمين ما يمكن للنقود فعله لتوفير اكبر قدر من الرعاية له."

قالت وهي تتذكر ما قالته اختها عن استعداده ليغفر لها:

"أتظن بول باقيا على حبه للوسيندا؟"

"لا أود أن اعطي رأيا. فلنتذكر أن بول يوناني، وان الشرقيين يحبون بعمق، أو لايحبون، لا وسط عندهم!"

وارتجفت تيسا بالرغم منها، أيظل بول على حب لوسيندا؟ وتجهم جو، وهو ينصحها بكلمات أبيها:

"انسيه! لكم أتمنى لو أنني لم أعرفك به!"

وتذكرت الحفلة التي عرفها به خلالها. قال اذ ذاك تيسا.. أعرفك بباقلوس ديمتريوس. انه يوناني وغني لدرجة مقززة.. الملاحة والسفن! ثم تركهما. مذ ذاك تغيرت حياتها بعدما وقعت عيناها عليه. وراح يطل عليها من عليـاء قامته، وشفتاه تنمان عن عجبه من التعبير الذي تجلى على وجهها. كان أسمر وشعره فاحما، ارتفع عن جبين ضيق وعيناه عسليتان، لم تنما عن أي ابتهاج باللقاء، أما هي فبرغم سنوات عمرها الاثنتين والعشرين شعرت بازدهاء كتلميذة حظيت بابتسامة أحد الأرباب الاغريق، وتحدثا، ورقصا وشربا، وودعها قائلا:

"قد نلتقي مرة أخرى."

ثم انطلق بسيارته.

وكان لقاؤهما الثاني في حفلة موسيقية. فابتسم لها، وقفز قلبها جزلا. وعند الانصراف أقلها بسيارته، وكانت لوسيندا عائدة الى البيت حين بلغاه، فتطلعت الى بول بعينين واسعتين، وشفتين جميلتين، انفرجتا عن ابتسامة داعية، وهكذا انتهت آمال تيسا فبرغم انه أكثر من التردد على بيتهما، ما كانت تقوى على مقاومة تضرج وجهها وارتعاشها كلما رآته. ولم يكن بول يلاحظ هذا في البداية، فلما فطن اليه، أبدى عجبا ولوى شفتيه، ولكن الطعنة الكبرى حين سمعته عفوا يتحدث مع جو في احدى الحفلات قائلا:

"أخت لوسيندا المملة، ماذا بها؟ أتلقي بنفسها على كل رجل تقابله؟ انها تثير اعصابي اذ تلاحقني بعينيها، وهما كل ما لديها."

وقال جو:

"انها لم تحظ بجمال لوسيندا، لكنها باهرة اذا ما عرفتها حق المعرفة وهز بول كتفيه، ثم لمح لوسيندا، فهم

بالذهاب اليها."

ولكن جو استوقفه قائلا:

"هل ستتزوج من لوسيندا؟"

وكان جوابه: اذا قبلتني.

"ولكن تصور ان تكون لك اخت زوجة تسلط عليك عينيها. لابد أن اللعينة بلا كرامة."

وفي الاسبوع التالي، أعلنت خطبة بول ولوسيندا، فأدركت تيسا ان لا بد لها من الرحيل!

* * *

أخرجها جو من استغراقها متسائلا:

"أفيقي.. أين أنت؟"

فاغتصبت ضحكة وقالت:

"بعيدا جدا."

"في احدى جزر البحر الابيض المتوسط مثلا؟ اطرحي عنك هذا، واقدمي على بداية جديدة تماما!"

"بداية جديدة؟ أما كانت هذه نيتها حين رحلت؟ ولكنها لم تنجح؟"

ومضى جو في حديثه:

"لقد اختفى، غادر المستشفى في أصيل ذات يوم فلما اتصلت بمسكنه في المساء، كان المسكن مغلقا، وأعتقد انه أمر مستخدميه ببيع كل شيء أثناء وجوده في المستشفى، يالظلم الحياة! ان تجتذبه لوسيندا دونك."

هكذا كانت لوسيندا، تظفر بأحسن شيء، حتى أيام الدراسة، كانت ترتكب الأخطاء وتفلت ببراعة، ليقع اللوم

على غيرها، وما كان ذلك الغير سوى أختها

كان أبوها لا يزال مستيقظا، حين عادت تيسا فجلسا بجوار المدفأة المحتضرة، يتحادثان. سألها في تلهف، وهو يرمقها مشجعا، اذ أحس بحيرتها:

"احسبك ستبقين؟ هنا بعض الأعمال الشاغرة. انا وأمك نريدك معنا ياتيسا."

فتطلعت اليه مكفهرة المحيا وقالت:

"لا أستطيع البقاء يا ابي ظننتني قادرة ولكن.."

وتحاشت نظراته، وأردفت:

"ان بول يعيش في قبرص.. والى هناك سأذهب."

واستلقى في مقعده وأدهشها تقبله قرارها. ثم قال:

"كنت أدرك أنك تسعين لعنوانه يا بنتي، ولكن ماذا تستطيعين أن تفعلي؟"

فتنهدت وقالت بصراحة:

"لا أدري كل ما هناك أنني أريد الذهاب الى هناك، والاهتداء الى مكانه، وتبين شأنه.."

قال أبوها:

"وما الجدوى؟ سيزيد هذا موقفك سوءا، ليتك ما قابلته."

"أنه لا يحبك يا عزيزتي."

"حقا. لقد أحب لوسيندا، وكان مستعدا للصفح عنها. ولكن.. لعله لم يعد يحبها!"

"يجب أن أرحل.. وهذا سر بيننا، ولا أريد أن تعلم أمي حتى لا تحمل هما، سأقول لها أنني سأعمل معلمة في قبرص، وسأكتب لكما على عنوان البيت، ولكني سأكتب اليك يا أبي على عنوان مكتبك لأبلغك بما يجري."

وهز الأب رأسه قائلا:

"انك حمقاء جدا يا أبنتي.. ولكني أعرف شعورك،

وأتصور انك تأملين في أن تجديه تغير، وأنه يريدك. ولكني أدعو الله الا تتعرضي لمزيد من الجراح!"

مكتبة [redacted]

٢ - سعادتي تخيفني

لاحت اليابسة مع بزوغ الفجر والأفق الشرقي ملتهب بالشمس الذهبية. وصاح أحد الملاحين، وكان يغسل سطح السفينة: هاهي ذي قبرص!

"أنها تبدو قريبة جدا لكننا لن نرسو قبل وقت الغداء.."

وصمت لحظة، ثم وجه السؤال الذي كانت تيسا موقنة انه سيوجهه، كما يحصل دائما لكل امرأة تسافر وحيدة في الشرق:

"هل أنت وحدك؟"

فأومأت برأسها مبتسمة، وعاد يسأل في انكليزية ركيكة:

"أتذهبين الى أصدقاء في قبرص؟"

"لي صديق فيها."

"أهو يقيم في فاماغوستا؟ أين يقيم؟"

"في قرية صغيرة في الجبال، انظر! الشمس تبدد الضباب والجزيرة تبدو الان بوضوح."

"هذا الطرف هو بافوس كانت أفروديت تعيش هناك. اتعرفين أفروديت؟"

"أجل أعرف أفروديت، خرجت من البحر عند بافوس."

"أصبت. كانت رمز الحب. لعل صديقك يقيم في بافوس."

كانت واثقة أن بول ما كان ليتخذ داره قريبا من منبت

رمز الحب. وازداد عدد الملاحين، وسرعان ما غص السطح بالناس، ولمحت تيسا شابا انضم الى السفينة من بيريوس قبل يومين، وتبادلت معه بعض الحديث. ولم تكن خطتها قد انجلت بعد، فقررت أن تتسمى باسم لوسيندا بالنسبة لكل من تلتقي به.

وانضمت الى الشاب عند سياج السفينة قائلة وهي تبتسم:

"ما توقعت أن تنهض مبكرا."

قال مارتن وهو يتناول كراسة صغيرة من جيبه، فيقطع منها ورقة، ويكتب عليها عنوانه:

"رقم تليفوني هنا، فلا تنسي الاتصال بي، انني على استعداد لأن أطوف بك الجزيرة."

وشكرته وقد خطر لها أن معرفة شخص في الجزيرة تفيدها، اذا لم تعثر على بول، أو تراجعت عن خطتها التي ماتزال غامضة.

نزلت تيسا في فندق صغير في ليماسول، يمتلكه زوجان انكليزيان. ولم تصدق حظها حين لمحت الزوجين يتبادلان نظرة سريعة، اذ ذكرت اسم بول عرضا، وسألتها ماريلين:

"بول ديمتريوس؟"

وقبل أن تجيب تيسا التفت زوجها كلايف قائلا:

"أهو صديقك؟"

"بل أعرفه، وأود أن أزوره. أتعرف أين يقيم؟"

"لا أعرف بدقة، بيته في الجبال، بعد بيلابيس. أعتقد أنه أعمى.. حادث سيارة وقع له وهو في انكلترا."

قالت تيسا بعد أن أخلدت للصمت برهة، وهي تحتسي شراب الليمون المثلج.

"أتعرفان شيئا عنه؟"

هزا رأسيهما، وقالت ماريلين:

"انه غامض، لا يختلط بأحد له خادم يتولى أموره. هذا

كل ما نعرفه• هل قابلته في انكلترا ؟»
فأجابت:
«عرفته في انكلترا نعم•»
كانت ليماسول في جنوب الجزيرة اما بيلابيس ففي شمالها• ولم تستطع تيسا أن تصبر فأعادت أمتعتها الى حقيبتها، ودفعت أجر سرير لم تستعمله، واستقلت سيارة الى نيقوسيا ثم استقلت سيارة أخرى الى كيرينيا ثم ثالثة الى بيلابيس حيث نزلت في فندق يمتلكه قبرصيان يونانيان: مارولا وسبيروس•
قالت مارولا، وهي تحمل حقيبة تيسا وترشدها الى غرفتها:
«اجئت من أنكلترا؟ ابني في الجامعة هناك تلقيت منه اليوم رسالة•• عقد خطبته على فتاة•»
فسألتها تيسا:
«انكليزية؟»
قالت:
«أجل•»
ومن شرفة الغرفة سرحت تيسا بصرها الى التلال الجيرية في سلسلة كيرينيا، وأشارت الى بيت كبير جدا، على بعد وسألت مارولا عن صاحبه، فأجابتها:
«انه للسيد سلوين• ان في بيلابيس كثيرا من الانكليز•»

وسألتها مارولا:
«اتبحثين عن رجل انكليزي؟»
«كلا بل انني أبحث عن شخص يدعى السيد بافلوس ديمتريوس• أتعرفينه؟»
وقطبت مارولا جبينها مفكرة، ثم قالت:
«سبيروس يعرف كل شيء، وانه لن يلبث أن يصل•»

وسألتها مارولا:
«آنسة بلين•• ما اسمك الأول؟»
فلما اجابتها بأنه لوسيندا، قالت:
«سأدعوك مدام لوسيندا•• مرحبا بك في بيلابيس هل تروق لك لغتي الانكليزية؟»
قالت تيسا وهي تغادر الشرفة:
«انها جيدة•»
فعقبت مارولا:
«لم أذهب الى مدرسة، لكنني أتعلم من الكتب، ببطء، وهدوء••»
«أود أن أرى كتابك عندما اعود•»
كانت مارولا ودودا، هانئة• ولكن سبيروس كان أكثر تحفظا•• أخذ يقدم لها صحون العشاء ووجهه الأسمر جامد، وأحضر لها زجاجة شراب وعجبت تيسا، كيف تتفادى احتساءها دون أن تجرح شعوره وأخيرا قالت:
«انني لا أشرب عادة• ثم أن هذا أكثر مما احتمل••»
ورمقها مذهولا، وقال:
«اشربي يا سيدتي، انه جيد جدا•»
فقالت:
«انني نادرا ما أشرب•»
واستعصت كلمة نادرا على فهمه، فشرحتها له، وانهار حاجز التحفظ وقالت زوجته:
«مدام لوسيندا تريد الاهتداء الى صديق لها يدعى•••»
وذكرت تيسا الاسم فقال:
«أجل انه لا•• يرى وقطب مفكرا، ثم قال:
«انه يقيم في الجبال• على مسافة بعيدة• لا يحب الناس• رجل غريب جدا• غدا اصطحبك اليه•»
لم تنم تيسا تلك الليلة• وفي الصباح، أقلها سبيروس

في سيارة نقل صغيرة مغلقة، كان يستخدمها لكافة الأغراض، سيارة عتيقة، مهتزة، راحت تتخبط بهما، ولم تكن تيسا ترى حولها سوى الجبال الى يسارها، والبحر الى يمينها، وبينهما بساتين الليمون والزيتون تتخللها الزهور الاقحوانية القرمزية، تخالط كتلا متتابعة من الزهور الذهبية واخرى متباينة الاحجام والألوان. وازداد الطريق ضيقا فلم يعد يتسع لغير عربة وتناثرت فيه الاحجار. وما لبثت تيسا أن رأت المنزل: كان أبيض ومنخفضا، يشرف على منظر الجبال والبحر، وغصت بالانفعال الجياش. فلما استقرت السيارة أمام البيت عرض سبيروس أن ينتظرها خارجه ووقفت تتأمل البيت. لم تكن تلوح فيه علامات الحياة، واخيرا سألته:

"كم أستغرق للعودة ماشية على قدمي؟"

وعجب الرجل، وألح أن ينتظرها، واخيرا قال انها ستضطر لاجتياز حوالي نصف الميل، يستغرق منها نصف الساعة، فقالت اذاً لا تنتظرني، وشكرا جزيلا اذ أحضرتني، سأعود مشيا على قدمي."

وما أن اختفت السيارة، حتى استدارت، وعادت تتأمل البيت. كان بياضه باهرا ازاء خلفية من اشجار خضراء على سفح الجبل. وكانت النوافذ كبيرة، تفضي جميعا الى شرفات وقد أغلقت مصاريعها الخضراء والصفراء. والزهور تحيط بالمبنى من كل الألوان، وزهور الليمون ترسل شذي رائعا. وطالت وقفتها، تغشاها لحظات شك فتستدير وتود أن تعود نابذة خطتها. ولكنها ما لبثت أن سارت الى الباب. وأدهشها أن يدها كانت ثابتة، حين ضغطت زر الجرس أخيرا. ولم تسمع سوى رنينه. وعادت فضغطت الزر، وفي الحال فتح الباب رجل ضئيل الجسم، داكن السمرة، وأجفلت، وانبعث صوتها مرتجفا، وهي تقول:

"هل السيد بافلوس ديمتريوس... يقيم هنا؟"

واجابها الرجل بانكليزية سليمة:

"أجل ياسيدتي. فماذا تريدين؟ أنه لا يستقبل زائرين."

"أظنه سيغير رأيه دعني أقابله."

وارتبكت اذ سألها عن أسمها، ثم قالت:

"اسمي... اسمي لوسيندا."

ودعاها للدخول، فاستجابت وهي ترفع يدا مرتجفة الى فمها: ما الذي فعلته؟ وأجفلت اذ أغلق الرجل الباب، وأحست بشر داهم. ولكنها غالبت مخاوفها بجهد خارق، والتفتت حولها وكان البهو معتما، اذ كانت كل المصاريع الخشبية للنوافذ مغلقة. وعلى البصيص المنساب خلالها، تبينت أن الاثاث قليل وعلى مائدة استوى اناء ضخم مليء بورود عطرت الهواء.

وسمعت وقع قدمين، فعاودها الارتجاف، والتفتت ببطء وهي مترددة كان بول يقف في فراغ الباب، طويلا نحيلا شديد السمرة، وتطلعت الى عينيه، ثم أمسكت انفاسها، كانتا كما عهدتهما، ولكنهما خلو من أي تعبير ومع ذلك، فمن الغريب أنهما لاحتا كما كانتا، داكنتين عميقتي الاغوار. بدا من المستحيل انه لا يستطيع الابصار، وانتقل نظرها الى يديه، كانت احداهما الى جانبه، والاخرى تقبض على عصا. وقد بهت لون بشرتهما، ولكن سمرته أصلا اتسقت مع دكنة الحروق، فلم يكن في منظر اليدين ما ينفر النظر، ولا ما يثير الاشمئزاز كما زعمت لوسيندا. ومع ذلك كان من الواضح انه عانى حروقا قاسية خيل الى تيسا انها ستلازمه بقية عمره.

وانبعث الصوت الحبيب:

"لوسيندا."

فشرعت تقول:

"انني جئت يابول. كما قلت أن بوسعي المجيء، لا سأل... لأسالك..."

رباه! ماذا تفعل هذا الخداع فوق طاقتها، فودت لو تستدير وتفر.. ولكن ما أشد قسوة هذا. وعادت تقول:

"بول.. انني آسفة.."

"آسفة؟"

كان صوته هادئا، غير مصدق.. وخالج تيسا شعور غريب بالخطر، وهي تتأمل وجهه. أكان صوته مشوبا بمرارة، أم أنها واهمة؟ وزال هذا الشعور، حين بادر قائلا:

"هل عدت الي؟"

وندت منه زفرة كبيرة، وتابع قوله:

"عدت يالوسيندا لتسأليني.. ماذا؟"

ولم تقو على أن تتحرك أو تنطق، اذ بدا الموقف غير واقعي، فساءلت نفسها أتراه حلما مغرقا في الخيال، لن تلبث أن تفيق منه لتجد وسادتها مبللة بدموعها، كما حدث مرارا خلال العامين الأخيرين؟ وعاد يسألها:

"لماذا جئت يالوسيندا؟"

"لأسألك الصفح. قلت انك مستعد للمغفرة، أمازلت مستعدا ان تقبلني؟"

وأذهلها أن الكلمات أصبحت تتدفق منها دون عناء وشدهت لعدم واقعية الموقف، كان شخصا سواها يتكلم، أو بالاحرى يدفع الكلمات الى فمها، وبدا صوته هو الآخر مذهولا مما يحدث، وان كان قويا حازما:

"انني مستعد للصفح يالوسيندا، كنت أود أن تعودي الي ولكني ما توقعت أن تعودي حقا."

ووضع عصاه على مقعده، لم يخطيء موقعه وبسط يديه قائلا:

"دعيني أضمك بين ذراعي يا عزيزتي لوسيندا الجميلة!"

وأسلمته تيسا يديها، فجذبها اليه وبهرت للمرة الأولى - بعناقه لم يعد لأي شيء قيمة الان، اذ ازاحت فرحة الفوز

كل انفعال آخر، وأحست بقدرتها على مواصلة الخداع! أصبحت السعادة ملكها ولكم ستسعد بول! بحبها تستطيع تعبيد طريق حياته، فتعتني به وترعاه، وتجعل عينيها عينيه!

وطفرت الدموع من مقلتيها، ما تصورت أبدا - ولو في أكثر تخيلاتها جموحا - أن تحظى بسعادة كهذه. واكتشفت أصابع بول دموعها، وهي تتحسس برفق وحنان قسماتها، فتساءل:

"أهو الندم يالوسيندا؟"

"ما هذا الذي اعترض سكينة نفسها، في لحظة الغبطة الفائقة؟"

ومرة أخرى كان في صوته ما جعلها تضرع خائفة:

"هل غفرت لي يابول؟ أمازلت تحبني؟"

وقال:

"غفرت يا أعز حبيبة... سنسعد معا بحياة رائعة يالوسيندا، كل ما في الماضي أصبح منسيا."

وتبينت اذ ذاك فقط كيف استبعد - دون مشقة - ما أصابه من لوسيندا من جراح، وهاهو يتقبلها في حب دونما لوم أو تأنيب، مما ينم عن مدى حبه لها! وكانت أصابعه ماضية في تحسس قسماتها، فتذكرت أن للعمى لمسات حساسة، فهل يكتشف اختلاف ملامحها البارزة العظام، عن استدارة وامتلاء قسمات لوسيندا الجميلة؟ ولكنها ابتسمت اذ وصلت أصابعه الى شعرها، ثم ربتت خدها وغمغمت وهي تشده اليها:

"لكم أنا سعيدة.. ما كان للحياة معنى لدي منذ.. منذ بعدت عنك!"

"كان بوسعك أن تأتي قبل الان، لقد انقضى اكثر من عام"

وتسارعت دقات قلبها جزعا، ثم قالت:

"ما تصورت انك ستقبلني!"

"هل خشيت الا أكون عنيت ما قلت؟ كنت أعنيه كنت أريد

www.liilas.com/vb3
Sarah

أن تأتي،ما اشتهيت شيئا في العالم أكثر مما اشتهيت أن تكوني زوجتي•"

وأغمضت تيسا عينيها، كيف استطاعت لوسيندا أن تنبذ حبا عظيما كهذا؟ وترددت وهي لا تدري كيف تصوغ كلماتها• ثم قالت:

"أقسم بأنني أحببتك دائما، برغم ما حدث•• وسأقضي عمري محاولة أن أعوضك عما عانيت من ألم••"

وغمغم بصوت خافت، كادت لا تلتقطه:

"انني أصدقك يالوسيندا، وادرك أنك لابد تحبينني، اذ جئت راغبة في اتخاذ رجل أعمى، زوجا!"

وشدها الى صدره فراد الاطمئنان، كانت سعادتها فائقة، حتى اكان يسعدها ان تبقى بين ذراعيه للأبد• وما كان يهمها أن هذا كله كان موجها الى لوسيندا، فقد أدركت - منذ اتخذت قرارها - أن ما تتلقاه لا يخصها أصلا، ولكن ما قيمة هذا مادامت معه، وما دام هو لها، تحبه وتعتز به وتخدمه، ما كانت تيسا لتبغي أكثر من هذا•

* * *

قررا أن يكون زواجهما يوم الثلاثاء - قبل اكتمال أسبوع على وصول تيسا - لكي لايبددا الوقت، وكشفت الأيام السابقة على ذلك لتيسا مالم تكن تعرفه• كانت - قبل لقائها ببول - ككل فتاة في سنها، تتصور الحب، وترسم في ذهنها التغيير الذي سيدخله على حياتها ظهور حبيب• ولكن ما صادفته في تلك الأيام فاق كل آمالها واحلامها، وكأن السماء ذاتها لن

تهيىء لها نعيما أعظم، وأصبحت هي بصره، وهما يتمشيان في حديقة الدار، أو الدرب الممتد خلفها•كان هواء شهر نيسان - (ابريل) ينضح بعبير المطر• وقال بول:

"ما أطيب الخروج يا لوسيندا، نادرا ما خرجت منذ جئت الى قبرص، وكنت أقنع بالجلوس في الحديقة•وقادته الى ضفة معشوشبة عند جدول صغير، واحضرت معها معطفين واقيين من المطر من قبيل الاحتياط، فبسطتهما على الضفة، وقال بول:

"خرير الجدول بديع•• هل الماء المتدفق كثير؟"

وأمسك بيدها اذ جلست بجواره قائلة:

"ليس كثيرا•• انه ينحدر من السفح متألقا تحت أشعة الشمس، مرتعشا كشريط فضي يداعبه النسيم، والزهور يابول، ما أبهاها! ما تصورت نمو الزهور البرية بهذه الكثرة••"

وراحت تصف له كل نوع وتقطف له زهرة منه، فيذكر لها اسمه، وقالت وهي تصف له كل شيء:

"ما أجمل امتزاج الألوان، هكذا الطبيعة، تتقن كل شيء••"

وخالت أن في لهجته الرصينة رنة تشاؤم أو تهكم، وهو يقول:

"أجل يالوسيندا، الطبيعة تتقن ما تبدع•• لا يرتكب الأخطاء سوى الانسان وألصق خده بخدها فزايلها القلق، وأصبحت دنياها وردية وقال:

"زيديني حديثا يا حبيبتي! هل ترين البحر؟"

"أجل تحتنا بعيدا، فيروزي جميل قرب الشاطىء ثم يتدرج الى أزرق داكن، مع بقع أخف لونا أخال أنها نشأت عن انعكاس السحب على الماء••"

"أهناك سحب فوق البحر؟"

"مجرد نتف رقيقة وزرقة السماء الوضاءة أكثر وضوحا،

وعلى بعد أكبر - في البحر - تصبح الزرقة مشوبة ببنفسجية، ثم تصل الى خط التقاء السماء بالبحر، ولا تشعر بالاتساع الشاسع، بل تكاد تتصور أن بوسعها أن ترمي الأفق بحجر من مكانها على البر٠"

"هل يبدو البحر كشريط ضيق؟"

"بطريقة ما٠٠ ومع ذلك فهناك سفينة بيضاء جميلة، تتيح منظرا يجعلك تتبين مدى ترامي اتساع البحر لأن السفينة تبدو كلعبة بحجم صندوق الثقاب٠"

وأمسكت اذ تحرك حجر عند قدمي بول، ثم هتفت:

"أنظر! سحلية وما لبثت يدها أن ارتجفت في يده، فقال٠:

"انني أستطيع رؤيتها يا حبيبتي!٠"

قالت:

"أما اكتفيت من ثرثرتي؟"

"صوتك كالموسيقى يالوسيندا٠ بجانب هذا فانت تبدعين وصف الأشياء، اتعرفين ياعزيزتي، انني لم ألاحظ هذا من قبل٠٠ ترى لماذا؟"

ومس الخوف قلبها، وأسرعت تقول:

"ماكانت هناك أشياء طريفة كهذه تستحق الوصف٠"

ولكم أراحها أن هز رأسه موافقا، وعندما جنحت الشمس للمغيب، ونهضا، تناول منها المعطفين الواقيين فامسكت بيده، وشقا طريقهما في درب حجري منحوت في سفح الجبل، وتحده صخور شديدة، فكانت قيادة السيارة فيه أمرا رهيبا٠ ومع ذلك صادفا سيارتين اتجهتا الى بيت رجل أعمال انكليزي متقاعد، قال بول ان له أصدقاء يترددون عليه، فسألته:

"الا تتلقى زيارات منه؟"

وأجاب بلهجة حادة ما سمعت مثلها منذ قدومها:

"لا أحد يزورني٠"

كان بول أصلا شديد البنية، وقوي الشخصية، متغطرسا، معتدا بنفسه، مما جعله فوق مستوى الرجال العاديين الذين عرفتهم٠ غير أن عماه جعله ضعيفا، اذ اضطرت للاعتماد على سواه في كل صغيرة٠٠ هذا فيما بينه وبين نفسه، فلا سبيل لغير ذلك وفهمت تيسا السر في أنه لا يأذن للاغراب بزيارته٠

وما لبث أن قال:

"نستطيع تناول الشاي في الشرفة، وتصفين لي غروب الشمس٠"

وأعد الخادم تاكيس الشاي في البهو، فتناولاه هناك، ثم دخلا الشرفة، ووقفت ملاصقة له، عاقدة ذراعيها في ذراعيه، وهي تقول:

"الشمس تهبط، كرة كبيرة من اللهب، والسماء قرمزية، وذهبية، وصفراء مقاربة للحمرة، وقطع السحب متوقدة، يالسرعتها في الرحيل تراها تتحرك٠"

قال:

"ومع ذلك فنحن الذين نتحرك حولها٠"

ومست الشمس حافة الأرض، وما لبث أن غاص آخر قوس منها وراء الأفق تاركا ذيولا من اللهب٠٠ وكانت تيسا تصف له كل حركة ثم قالت:

"هذه هي النهاية حتى الغد٠ اواه يا بول، السماء٠٠ فيها لون البنفسج ولون البرتقال الزاهي٠٠"

وشدها اليه وعانقها٠٠ وزفرت في اغتباط عذب، وأسندت رأسها الى كتفه٠٠ وظلا واقفين طويلا في هواء المساء اللطيف، وروائح الزهور المحيطة بهما تمتزج، ويظهر عليها شذى الليمون٠٠ وأحست تيسا بيد بول تتحسس شعرها وتقيسه، ثم قال:

"انك تركته ينمو، فهو أطول من ذي قبل٠٠"

قالت:

"ان الانماط تتغير يا بول"

ومست شفتيه ابتسامة باهتة وقال:

"أجل هذا غريب، فالانماط كما عرفتها منذ عام·· وأسرعت تقول·"

"كلا يا عزيزي·· سأصفها لك·"

وانحنى فطبع على شفتيها قبلة· وما لبثا أن دخلا، فقال:

"اقرأي لي يا غرامي، لفترة قصيرة قبل أن أوي للفراش··"

واستهواهما الكتاب، حتى انتبهت تيسا الى أن الساعة التاسعة فهتفت:

"أتعرف كم الساعة يا بول؟"

ومس بأصابعه الساعة البارزة الأرقام التي يحملها، وقال:

"يا الله! ما أسرع ما يطير الوقت!··"

وذهبت الى المطبخ تطلب العشاء، فلما عادت اقترحت أن يتناولاه في الشرفة، حيث جلسا وخلفهما أشباح الجبال المعتمة، وخرير البحر ينساب من بعيد، وأشجار النخيل تتمايل·· وقالت تيسا في حذر، لكي لاتكشف ما خبرته في أسفارها:

"القمر هنا مختلف·· أعني انه في انكلترا أصغر حجما·· انه أشبه بقرص كبير من الثلج الأزرق·· كأنه شمس تجمدت بالبرودة·· وتأثير ضوئه على السماء مختلف كذلك·· هناك تألق بلون الياقوت الازرق، مما يضاعف الايحاء بالبرودة·"

"ما أبدع وصفك يالوسيندا· كأني أرى كل شيء بجلاء··· ان وصفك لا يبعث اضطرابا، فان فيه شيئا من الواقعية الثابتة·"

وحملقت فيه غير مصدقة، كان هذا شعورها، فكيف تسنى نقله اليه بدون كلمات؟ وظلا جالسين حتى قرابة انتصاف الليل وعندما افترقا عند باب غرفته ضمها برفق وقال:

"بعد ساعات قليلة تصبحين لي يا عزيزتي·"

وقالت:

"هذا كل ما ابتغي يا بول، أن اكون لك·"

وراغ منها النوم - وفي الساعة الثانية من الصباح كانت تجلس على الفراش تكتب لأبيها:

"اشعر كأنني نقلت الى السماء·· لكم أنا سعيدة حتى أن سعادتي تخيفني!"

٢ - قبل هبوب العاصفة

جاءها الرد بعد عشرة أيام. وبعد أن ابدى أبوها ذهولا للأنباء التي أفضت بها اليه، كتب قائلا:

"كم وددت أن ألح في نصحك بالعودة فورا، ولكن الخطوة الخطيرة ستكون قد اتخذت، عندما تصل رسالتي اليك، حسنا يا بنيتي، هذا ما كنت تودينه منذ التقيت بول ولا أملك سوى أن آمل، وأدعو الله، ألا تعرفي بعد الآن سوى ما يحقق أمنية فؤادك. وكم تذهلني سرعة صفح بول عما أصابه من غبن، ومبادرته بتقبلك (أو بالأحرى تقبل لوسيندا) كزوجة له. انني كما تعلمين عشت في اليونان فترة في شبابي، ولا أوقن حتى الآن بقدرتي على قراءة شخصية اليوناني العادي. ولقد حدست دائما - بالنسبة الى بول - وجود شيء من القسوة البدائية الكاملة، تحت غشاء الحضارة الغربية التي اكتسبها باقامته طويلا في بلادنا. وكان الأيسر أن أتصوره كمنتقم لا يرحم، يبتكر خطة شيطانية لمعاقبة لوسيندا. ولكن وصفك المتألق لا ستقباله اياك يبين أن الأمر لم يكن هكذا وأن مستقبلك يبدو مكفولا..."

انتقام... عقاب؟ ابتسمت تيسا، فما كان أبعد هذا عن ذهن زوجها، مضى على زواجهما أكثر من أسبوع، وما

من عروس فاقتها حبورا، وما من زوج فاقه حنانا، كان عطاء كل منهما سخيا وتلاشى ما كانت تعانيه من يأس ولوعة، وما لا تعرفه للآن من حب بول لاختها، كحلم يتبدد باليقظة، وتقبلت ماكان يقدم بلهفة وعرفان، وبثقة واطمئنان لحبه، فكان رزينا لدرجة تغيظ، ولكنه دائما العاشق الحنون اللطيف، مصرا على أن يرقى بها الى عوالم النشوة والغبطة، وغشيها خلال هذه الفترة جمال تولد عن الرضى والاطمئنان الى الوحيد الذي احبته، وكانت في بعض لحظات التأمل تواجه حقيقة أن هذا كله كان موجها الى لوسيندا ولكنها- لدهشتها - لم تكن تجد عناء في طرح هذا جانبا.

ويوم تلقت رسالة أبيها، تأخرت دقائق عن الفطور، فبحث عنها بول، وعثر عليها في غرفة الجلوس، وهزها صوته - كالعادة - وهو يسألها:

"أنت هنا يا عزيزتي؟"

وأخذ يدق سيقان أحد المقاعد بعصاه برفق، فأجابت:

"نعم.. أتريد شيئا؟"

قال وهو يجلس مبتسما، مواجها اياها:

"لا أريد سوى زوجتي الجميلة!"

وذكرت أنها تلقت خطابا من أبيها، وأنه يبلغة تحياته فسألها:

"هل ستقرأينه لي؟"

انه السؤال الذي كانت تخافه! وطافت عيناها بالورقة، وأخذت تبتكر الكثير من الحديث، لكنها قرأت الخاتمة:

"ان مستقبلك يبدو مكفولا"

فردد العبارة فاقتربت من مقعده قائلة:

"يعني ان مستقبلنا يا أعز الناس سيكون رائعا يابول."

وتناول يدها فألصقها بخده. وقالت وهي تحس برنة تحسس تسلل الى صوتها:

"ماذا تود أن نفعل اليوم؟ بوسعنا الذهاب الى السباحة أو لعلك تريد شراء الأشياء التي كنت تتحدث عنها؟"

وذهبا الى نيقوسيا في سيارة مستأجرة لرجل يدعى كيبروس، سلكت بهما طريقا جديدا في أقصى الحافة الغربية لجبال كيرينا. فأخذت تيسا تصف له - طيلة الطريق - المناظر الطبيعية المتغيرة، وبعد جولة في المتاجر، تناولا غداء انكليزيا في فندق صغير، وتمشيا قليلا، ثم عادت بهما السيارة في الطريق الذي جاءت منه.

في أصيل ذلك اليوم جلسا في الحديقة، لا يتخلل السكينة سوى رنين ينساب من بعيد للأجراس المعلقة برقاب الغنم، وازيز الحشرات. ومن الحديقة كان شذى الورد ينساب اليهما، ممتزجا بعبير أشجار الدفلى التي تؤلف سياجا سميكا بين أرض الفيلا وبساتين الليمون، التي كانت ملكا لبول وكذلك بساتين الزيتون وعدد من حقول الحنطة، وأراض أخرى أبعد مدى وسألها:

"أسعيدة جدا؟ أتظنين أنك بلغت ذروة السعادة يالوسيندا؟"

بدا لها السؤال غريبا، ولكن لم تدر مبررا، وقالت بصوت خافت وهي تتأمل ساقيها السمراوين وتتذكر ساقي لوسيندا البيضاوين:

"لابد أن هذه هي ذروة السعادة ماأظن من الممكن الارتفاع لأكثر من هذا."

وباشارة صامتة أبدى رغبة في الامساك بيدها وقال:

"اذن فقد بلغت أقصى الأعالي."

وبدا فجأة انه جد بعيد وقد ولى رأسه نحو قمة يعلوها حصن سانت هيلاريون العتيق، وتتبعت التفاته، فرأت حركة خاطفة.. كانت النسور تحوم وتعود فوق القمم.. ولسبب لم تدر له تعليلا، قفزت الى ذاكرتها كلمات من قصيدة قرأتها أيام الدراسة: السكون شامل، اللهم الا حين ينقض

نسر مشهرا مخالبه فيحمل الفريسة الوديعة الى ملاكها وارتجفت وسحبت يدها من يد بول، قائلة:

"هناك برد يا بول، برد قارس!"

فأبدى دهشته، وقالت وأنفاسها تبدو متهدجة، وهي ترمقه في حيرة، لا تدري مبررا للخوف الذي احتواها:

"انني شعرت بقشعريرة.. سأذهب فأرتدي شيئا."

"هل بك شيء يا عزيزتي؟ لا سبيل لأن تشعري ببرد لقد كدت أتخفف مما ألبس!"

وكان يرتدي قميصا وسروالا قصيرا - كانت حتى تلك اللحظة تشعر بدفء غامر وقالت:

"أشعر بالدفء ثانية."

فأنحنى عليها قائلا:

"ماذا هناك يا حبيبتي؟ لا أشعر أنك باردة فأنت دافئة جميلة!"

وانكمشت ملتصقة به كأنها تنشد حمايته وقالت:

"أحيانا يرتجف المرء، لغير ما سبب ظاهر وألصقت خدها بخده وهي تتبين مدى قلقه عليها، وتعجبت: أتحظى غيرها بزوج يفوقه حبا؟"

وخلصها من ذراعيه ليذهب الى داخل البيت، وراقبته وهو يسترشد بعصاه، لامسا بها الأشياء المألوفة: شجرة التين، وشجرة اللوز، والنخلة العالية، ثم درجات السلم، وعمود الشرفة الذي التفت عليه فروع الكرمة وأغمضت تيسا عينيها، محاولة أن تتبين كيف يكون العمى، ظلام دائم، حتى نهاية العمر! وفتحت عينيها اذ شعرت بابتلال أهدابها. كانت الشمس تشرق على الحديقة والفيلا البيضاء وكل شيء مشرق بالنور. وجلست وقد عاودها الدفء وترقبت عودته، وامتلأ قلبها اشفاقا اذ رأته يعود مهتديا بعصاه، لو أن الحادث لم يقع، لو أن لوسيندا لم تلمس عجلة القيادة ما كانت هي،

www.liilas.com/vb3
Sarah

تيسا هنا، وما عرفت نعيم الأسبوعين الأخيرين، أجل ما كانت هنا الا لأنه أعمى!

وسارا في وقت لاحق يستروحان نسيم المساء، وكل فتنة تنحسر اذ تجنح الشمس نحو المغيب، وهتفت وقد وقفا معا فجأة:

"انه لسحر! الأفق ملتهب وفي السماء قوس كبير مصطبغ باللون القرمزي، البرتقالي والسحب البيضاء الصغيرة موشاة باللون القرمزي، والنتف الصغيرة الرقيقة أشبه بلون ذهبي نصف شفاف، ولكنها أخذت تتحول الى البنفسجي وعادت تهتف.

"انه لسحر.. استطيع تصوره يا عزيزي؟"

فأجاب بلهجة محيرة، واهنة:

"بوسعي أن أراها، كيف غفلت عن هذه المقدرة الرائعة لديك؟"

"ما فطنت الى وجودها ابدا!"

وارتبك نبض تيسا وهو يتابع الحديث:

"ما أكمل وصفك للأشياء؟ انني كما قلت أرى الغروب."

وتغضن جبينه وهو يبدو في حيرة، وفجأة هتفت تيسا.

"انصت يابول اجراس الغنم!"

كانت موسيقاها الرقيقة تنساب من بعيد وسط صمت الجبال، وشدت أصابعه على يدها وهو يقول:

"رائعة، أتعرفين يا لوسيندا انها قد تكون منبعثة من بعيد، من مسافة طويلة جدا، بسبب صفاء الهواء ورقته غير العاديين في هذه الجبال."

ووقفا يصغيان طويلا ثم ارتدا الى البيت.

* * *

قالت وهما يتناولان الافطار:

"الى أين نذهب اليوم يا بول؟"

كان ذلك في اليوم التالي لزيارتهما نيقوسيا.

"الى أي مكان غير بعيد. اختاري أنت يا لوسيندا."

واقترحت أن يسبحا، فقال:

"فكرة ممتازة، ما رأيك في الشاطيء الممتد غرب كرينيا؟ ستجد كهفا رمليا نستأثر به."

واستدعت كيروس هاتفيا. وقال بول مفكراً وهما ينتظرانه:

"لا بد أن نقتني سيارة يا لوسيندا. وانت تعرفين القيادة."

"أجل."

ولكنها شعرت بمسؤولية القيادة وبول معها، في الدرب الضيق على سفح الجبل، الذي تحد أحد جانبيه هاوية. قالت:

"الطريق ليست جيدة."

فأشار وكأنه يزيح اعتراضا صبيانيا:

"الغير يستعملونها."

وخيل اليها أن في صوته حدة مقتضبة، ولكنها أسرعت تستبعد الفكرة، وقالت:

"أجل أراك على صواب. سيكون امتلاكنا سيارة أكثر اقتصاداً."

وانطلقا هابطين من الجبل تحت شمس متألقة وعلى جانبي الطريق ألوان متمازجة في فوضى، واستدار نسر فوق القمم الصخرية ثم انساب كشبح في كبد السماء، وسألها بول بلطف وحنان:

"ماذا ترين؟"

قالت:

"أننا نقترب من بيلابيس."

فهتف:

"ذلك الظل القوطي الفخم، حدثيني عنه!"

"انه من الحجر الرملي البني، لوحته الشمس كثيرا، ولكن الأقواس الشامخة نحو السماء الزرقاء، تبدو جميلة. وفي الحديقة أطول ما رأيت من أشجار السرو، وأكثر استقامة..."

وتوقف كيبروس أمام مقهى صغير، جلس الرجال فيه كالعادة يلعبون طاولة النرد، ويتحمل الخاسر نفقات المشروبات، التي كانت عبارة عن قهوة تركية في أقداح صغيرة، تصحبها زجاجة ماء مثلج. وأمام المقهى أراضي الدير تتأجج بألوان زاهية، وتحت أسواره العتيقة، شجرة المستحية المشهورة تبسط ظلا يرحب بالأهالي والسياح القلائل.. لقد أخذ القرويون يؤمون الكنيسة التي ترجع للقرن الثالث عشر - بعد أن اعادوها للطقوس اليونانية. واكملت السيارة تهبط بهما. وقامت أشجار الخروب على جانب الطريق، تطل على بحر من اللونين القرمزي والذهبي، حيث انتشرت زهور الاقحوان.

قالت تيسا بعد وصف هذا لزوجها:

"تناسق الألوان يأخذ بالأنفاس. والحملان يابول، انها صغيرة جدا، تسعى وراء حليب الأم باستمرار والماعز، الراعي واحد، ولكنها بمعزل عن الغنم ترى لماذا؟"

فقال مداعبا:

"لعلها تعتبر نفسها أرقى من الغنم!"

وضحكت تيسا. وأبطأت السيارة ليمر بجوارها فلاح يركب حماراً يسير على مهل. فقالت تيسا:

"صورة لطيفة اذا شوهدت من الخلف بسبب شكل الحمار والرجل والسلتين الكبيرتين."

وتألق البحر تحتهما، فأطلقت تيسا زفرة رضى قائلة:

"انه رائع يا بول!"

وتريث بول، فالتفتت اليه، أتراه كان وهما، ام ان شفتيه كانتا تحملان ومضة انتصار؟ ولكن كلماته جاءت

محملة بالحنان المألوف:

"انك على صواب يا زوجتي الجميلة.. انه رائع!"

وأطالت النظر اليه، فاذا به يبتسم وقد تلاشى الوميض الذي عقبته لحظة عدم ارتياح. وامسكت يده، فأحست بقلبها مليئاً بالهناء والدفء.

وبعد أن استبدلا ثيابهما في أحد أكواخ الشاطيء المتداعية على التلال، نعما بساعة من الاسترخاء على الرمال الدافئة، قبل أن يهبطا الى الماء. وأدركت تيسا أن بول- وأن لم يسألها- كان يود أن تبقى قريبة منه. تلك هي المرة الثانية يذهبان فيها الى البحر، وقد خامر تيسا شعور من السعادة لأنه كان بمساعدتها قادراً على الاستمتاع بالسباحة ثانية، كان يحبها اذ اعتاد أن يقضي مع لوسيندا كثيرا من الوقت في مسبح قرب البيت، واذ خرجا ناولته منشفة وراحت تتأمله وهو يجفف وجهه، ثم ذراعيه وساقيه، وأخيرا شعره الفاحم، الذي تجعد متهدلا على جبينه، فبدا شبابه فاتنا، واستلقى بول على الرمال، عاقدا ذراعيه خلف رأسه.. كان نحوله يتميز بقوة عضلية كبيرة، وكانت سمرته تبدو نتيجة للتعرض للشمس، أكثر مما تعود الى اللون الطبيعي لبشرته، وقد علل هذا بأنه كان يلازم الحديقة مذ جاء الى قبرص، وعندما أخبرته بأن الساعة بلغت الواحدة اقترح أن يتناولا الغداء، فقالت

"ليكن ما تقول!"

وعلت شفتيه ابتسامة، وقال:

"كم أنت لطيفة ومعنية دائما يالوسيندا، هيا لنذهب الى مارمونت."

وكان هذا فندقا غير عادي في كارافاس على بضعة أميال من كرينيا، يقوم على حافة صخرية فوق خليج رملي جميل، وشرفاته تطل على البحر وعلى الجبال، فجلسا

مواجهين للبحر، وعلى الرمال تحتهما نفر من السياح يستمتعون بالشمس وبالسباحة في الماء الصافي الساكن. وتناولا غداء من الكباب والسلطة، والشراب القبرصي، وكان كيبروس قد ذهب لزيارة صديق له. فلما فرغا من الغداء، اقترحت تيسا ان يهبطا الى الشاطيء، ريثما يعود، وكانت الرمال جافة ودافئة، فأخذا يخطران وقد تشابكت يداهما، حتى سمعا صوت كيبروس يعلن عودته.

وتساءلت وهما يصلان الى السيارة:

"أنرجع الى البيت الآن؟"

"أتريدين الذهاب الى مكان آخر لعل كيبروس يقترح مكانا ما."

قال السائق وهو يرمق تيسا متسائلا:

"هل أقلكما الى الينابيع السبعة في لابيتوس؟"

كانت رحلة باهرة بدايتها. وسلكوا طريقا جديدا يصعد القرية وترتفع بعض أجزائه الى ما يزيد على ثمانمائة قدم فوق سطح البحر، وكانت الدروب الملتوية محفوفة ببيوت عتيقة، رملية اللون، وفي كل حديقة أشجار الليمون يملأ عبيرها الهواء الساخن الرقيق، وأشجار الزيتون والجوز واللوز والرمان مزدهرة في الحقول. وعلى مستوى اعلى وفي أحضان صخور بارزة على جانب الجبل قامت فيلات بيضاء جميلة لأغنياء القبارصة والانكليز المقيمين، يتألق بياضها ازاء الخلفية الجبلية السمراء، والسفوح المكسوة بأشجار الصنوبر.

قال كيبروس، وقد أوقف السيارة، وفتح الباب لبول:

"هنا المياه البديعة التي اكسبت لابيتوس الرخاء انها تسمى الآن كيفا لوفريسو أنظر كيف ينبثق الماء من الصخر."

"أنظر؟!." غص حلق تيسا، وهي تقف بجوار زوجها.

كان الماء ينحدر من النبع الواسع الدفين في جوف كتلة الصخر الجيري غير المنتظم. وقالت تيسا والحرج يخف عنها:

"أنه يبرق كالفضة تحت ضوء الشمس، لابد أنك تسمعه، ألا يبدو رائعا؟"

قال:

"بل أنه يبدو قويا.. الظاهر ان حجم الماء المنحدر عظيم."

قال كيبروس:

"انه يمد المنطقة بأسرها، ولهذا فان لابيتوس أكثر خضرة من أماكن كثيرة."

وأمسكت تيسا بيد بول وبعد فترة ذهبا الى مقهى صغير هناك. وبمودة القبارصة وكرمهم جاء صاحب المقهى فجالسهما وأخذ يثرثر معهما، كان المنظر الطبيعي عجيب البهاء، أشجار الزيتون والنخيل تتسامق نحو السماء، والبيوت العتيقة تتشبث بجوانب التل، والكنائس البيضاء بقبابها وابراجها البديعة المنظر، والساحل المقوس تتخلله خلجان صخرية، واشباه جزر ضيقة. ثم الامتداد الشاسع المهيب للبحر الابيض المتوسط، والأفق النائي يبدو كالضباب عند التقاء البحر بالسماء.

قال صاحب المقهى وهو يرمق بول، ثم يلتفت الى تيسا:

"أهذه زيارتكما الأولى للابيتوس؟"

وتفحص بنظراته تيسا، فعجبت مما كان يجول بخاطره. فقد كان "اليوناني الغريب" معروفا - لأميال حول داره كناسك، وفجأة بدا يطوف ويتجول مع زوجته الجديدة. وما درت تيسا أنها كانت موضوع مناقشات كثيرة، فالقبرصي يحب أن يعرف ما يجري، وأي غريبة تظهر في أحدى القرى، لا تلبث أن تصبح موضوعا لأسئلة متتابعة ومتراكمة، وهكذا حتى تصبح سيرتها معروفة، وبعد ذلك لا تبقى غريبة، بل يتقبلها ويبتسم لها كل رجل وأمرأة وطفل في القرية!

أخيرا قال بول بلطف:

"أجل هذه زيارتنا الأولى اعتقد أن آثار احدى المدن

الواسعة قريبة من هنا ."

"لامبوسا هكذا تسمى اليوم، ولكنها في الواقع لابيتوس القديمة .. انها على الشاطيء وليست على الجبل .. زيارتها مباحة، ولكن ما أقل ما يشاهد فيها، فقد دمر الزلزال كل شيء ونمت الاعشاب والنباتات ويقال أن هناك كنوزاً كثيرة تحتها، ولكن أحدا لم يقم بالتنقيب بعد ."

وأشار في اتجاه كيرينيا قائلا:

"أنها على بعد حوالي ميل ونصف، على الشاطيء كما قلت ."

* * *

وفي طريق العودة عرجوا بالسيارة عليها، واغتبطت تيسا اذ عثرت على يد قنينة أثرية كبيرة، وحافة قنينة أصغر، قالت:

"تحسسها يابول، هل تتبين زخارفها ؟"

وثبط كيبروس تحمسها قائلا:

"هنا الكثير الكثير جدا من هذه .. والمقيمون في المنطقة يزهدون فيها ولا يلتقطونها ."

وقال بول بشيء من العجب:

"يحسن أن تلقي بهما .. فهما ليسا اثريتين جديرتين بالاقتناء ."

قالت:

"ولكني سأحتفظ بهما تصور أنهما صنعتا قبل ألفي سنة وأكثر !"

وخيل اليها أن كيبروس يبتسم متعاليا، بينما قال بول:

"ما أحسبك ستبثين الفوضى في مدخل دارنا أو في شرفتنا بأكداس من هذه الأشياء ؟"

"تبث الفوضى؟"

وأودعت القطعتين جيبها، وأمسكت بيد بول- فقد همس لها كيبروس بأن ثمة ثعابين في المكان- وهي تتساءل كيف أبث الفوضى بقطعتين صغيرتين من الفخار ؟

"اذا كنت مشغوفة بهذه البقايا القديمة من الفخار، فأوقني بأنك لن نقنعي بقطعتين، فان قبرص تفيض بمثل هذه الأشياء تجدينها في كل مكان، كما قيل لي ."

وما لبثا أن بلغا السيارة، فانطلقت بهما دون توقف، اذ اكفهرت المساء منذرة بالمطر .

وقال بول:

"أن برودة الجو لاتدعو للجلوس في الشرفة" فدخلا البهو .

وهي تقول:

"أذن سأقرأ لك، ماذا تحب أن أقرأ ؟"

فقال وهو يستقر في مقعد:

"أقرأي لي الصحيفة الانكليزية أولا ."

ثم أردف:

"أتسمحين بأن تأتيني بزجاجة ماء ؟"

وذهبت الى المطبخ . كان تاكي قد ذهب ليزور امه المسنة في القرية، ولينقل اليها بعض الخضر التي كان بول يصر على أن يحملها اليها ثلاث مرات في الأسبوع وقالت تيسا وهي تعود بالزجاجة:

"سأضعها في المكان المعهود ."

فكلما اراد الشراب كان الماء يوضع على الركن الايمن من منضدة صغيرة، أو آية منضدة تكون قريبة . ولكن بول مد يده فجأة وتيسا تسعى لوضع الزجاجة، فاذا بها تميل، فينسكب الماء على ثيابه .

وصاح غاضباً:

"يا لك من رعناء! ائتني بمنشفة!"

ولم تقو تيسا على الحركة، فوقفت تحملق فيه وعيناها الجميلتان تفيضان بعدم التصديق. ما مد يده هكذا الى الزجاجة من قبل. كان ينتظر دائما حتى يطمئن الى أن من يضعها قد ابتعد عنها، وما وجه اليها يوما كلمة واحدة حادة. هل بدأ؟ ولمعت عيناها اذ تذكرت الشعور العابر الذي خالجها، عندما كان يحدثها عن السيارة. كان في صوته حدة وتساءل:

"أين أنت؟ هل أحضرت المنشفة؟"

"كلا سأحضرها حالا."

وخرجت لتعود بعد ثوان فقالت:

"دعني أجفف الماء" لكنه أخذ المنشفة منها فقالت:

"الماء على سترتك يا بول."

قال وقد هدأ صوته وتلاشت رنة الغضب:

"لاتحفلي يا لوسيندا.. بوسعي أن أجففه! كنت أجيد التصرف قبل مجيئك، كما تعرفين."

وقرأت له، ثم أعدت العشاء. وأخذ يتحدث بحنانه المعهود، وفي الليل، وهي تستلقي مسهدة، التفت ذراعه حولها في وجد وقال:

"ماذا بك يا عزيزتي؟"

فارتجفت وقالت:

"لاشيء يا بول ضمني اليك بقوة ضمني بشدة، دائما!"

٤ - العيد ليس سعيداً

كانت العيون ترافق مشية تيسا وتتفحصها لكنها تعودت هذا، فاكتفت بتوجيه ابتسامة الى الرجال المتسكعين خارج المقهى على الطريقة القبرصية. كانت قد أقبلت ماشية لتتلقى أية رسائل لها في المقهى. ولم تكن ثمة رسائل. وعجبت تيسا لخيبة الأمل التي اعترتها. كانت الرسائل المقبلة من الوطن هامة، ولكنها لم تكن بمثابة حياة لها، فقد تركزت دنياها بأسرها على زوجها! وصادفها- وهي تغادر المقهى- كريستوس وهو شيخ مفعم بالنشاط، اعتاد استغلال كل فرصة للتحدث اليها بلغة انكليزية ممتازة وسألها ان كانت عائدة الى دارها، فقالت:

"خطر لي أن أزور ما رولا وسبيروس في طريقي."

"لقد ذهب مستر سبيروس الى كيرينيا. أنني ماض في طريقك، فلنمش معا."

سألته في فضول:

"أين تعلمت الانكليزية؟"

فقال:

"كنت في الشرطة منذ سنين، وقال المشرف علينا ان من يخفق في تعلم الانكليزية يطرد."

والتفت اليها ضاحكا، وقال:

"وكريستوس عاقل، يسمع الكلمة، والمهدد بالفقر، يغالب كل الصعاب".

وجذبها جانبا في الدرب الضيق مفسحا الطريق لحافلة عابرة وسألته:

"ماذا تفعل الآن يا كريستوس؟"

قال:

"انني امتلك بساتين ليمون كثيرة والليمون يدر مالا وفيرا".

وافترقا عند بيته، وواصلت هي طريقها، مارة بالبيوت العتيقة التي لوحت الشمس ابوابها وجدرانها، والزهور كانت طالعة فيها وبينها، أحيانا في أصص من الفخار وكثيرا في أوعية معدنية ودلاء قديمة صدئة. وكانت الحدائق تتوهج بالألوان تحت أشعة الشمس، وقد انتشرت في جنباتها مختلفات كافة أنواع المركبات والأشياء المعدنية المفككة والمهملة وتنبش بينها الدجاجات والديوك الرومية والماعز، بحثا عن القوت.

واستقبلتها مارولا متهللة الوجه، وذراعاها مثقلتان بثمار الخرشوف، وهتفت:

"مدام لوسيندا، هل كنت تتريضين فمضيت" الى قرية بيلابيس؟" فأجابت:

"ذهبت الى المقهى أسأل عن الرسائل".

فصاحت مارولا:

"اليوم تلقيت رسالة من ابني. انه يريد نقودا. دائما تتطلب لندن نقودا كثيرة... اما قبرص فانها رخيصة اليس كذلك؟".

فأجابت:

"بعض الأشياء رخيصة، ولكن أشياء كثيرة هنا أبهظ ثمنا مما في انكلترا".

وجلست تيسا تحملق في المرتفعات غير المنتظمة

وهي شاردة الذهن، وقالت أخيرا:

"هناك سحب فوق الجبال اليوم، اتظنين المطر سينهمر؟"

قالت مارولا:

"كلا فالمطر هذا العام قليل".

قدمت مارولا الى تيسا قدحا من شراب البرتقال، وتناولت لنفسها قدحا، فرفعته قائلة:

"لنشرب نخبك، حياة طويلة وهانئة انك موفقة الحظ فالفتاة الانكليزية لايتحتم أن تملك منزلا، اما القبرصية فلا بد لها من البيت".

وقطبت تيسا متسائلة:

"أتعنين على سبيل المهر؟ ألا يقع الشبان هنا في الحب؟"

وهزت مارولا رأسها قائلة:

"ولكن لابد أن تمتلك الفتاة بيتا".

"هل اضطررت لأن تقدمي لسبيروس بيتا؟"

"لا يشترط التقديم. يكفي أن تمتلك الفتاة بيتا. وقد كان لي بيت في القرية، فتزوجني سبيروس، ثم بعت البيت واشترينا الفندق".

وسألتها تيسا:

"ولكنكما سعيدان.. كان خليقا بأن يتزوجك ولو لم تمتلكي منزلا".

فقالت:

"سبيروس؟ كلا يا سيدتي. لو لم يكن لمارولا بيت لتزوج سبيروس فتاة أخرى".

وأحتست تيسا الشراب، وهي تتذكر ماكان مارتن يقول عن القبارصة:

"الزواج في القرية عادة تصحبه ضجة وكثير من الطقوس المرحة، ولكن الرجل بعد عام واحد لاتجدينه الا في المقهى، بينما تلزم المرأة البيت. القبارصة الموسرون والمتعلمون فقط

هم الذين يخرجون بصحبة زوجاتهم٠"

قالت ماروﻻ:

"في قرية بعيدة رجل رزق سبع بنات٠ لم تتزوج واحدة منهن، لأنه لايملك شراء بيوت لهن!"

كان بول في الحديقة مستلقيا بكامل طوله على سرير٠ وتوقفت تيسا على مسافة، ترقبه موجسة ومشفقة، لأول مرة رأته يونانيا قحا، بكبرياء وقسوة اسلافه أولئك المحاربين الاشاوس الذين لم يكونوا يكنون أي مراعاة للحياة٠ كانوا يتقبلون الموت بنظرة فلسفية، متطلعين الى مستقبل هانيء فوق أعالي جبل الأوليمب٠ لقد قال أبوها أن بول اكتسب قشرة من الحضارة الغربية باقامته الطويلة في انكلترا، لكن ماهي سماته الموروثة؟ واختلج جفناه واطبقا على عينيه، وارتفعت يده تحجب عنهما الشمس، وكأن توهجها كان فوق احتمالهما٠

وكان مستغرقا في التفكير٠ وفجأة تغيرت ملامحه، فأحست باضطراب أعصابها للمحة خاطفة٠ ترى ماذا كانت تلك الافكار التي أدت لتشوه تلك القسمات الجميلة، وأدت الى التواء فمه بشكل قاس، يكاد يكون شيطانيا؟ وأسرعت تخاطبه، فاذا ابتسامة حنون تبدل قسماته من جديد، قالت

"ما من رسائل يا بول٠"

قال:

"ما كنت أتوقع شيئا لنفسي، هل استأت يا حبيبتي؟"

فجلست على بساط بجانب السرير، وقالت:

"ما أطيب تلقي أخبار الوطن٠"

فاستدار نحوها، وقد ارتفع حاجباه، وقال:

"الوطن؟"

وصححت ما قالته مبتسمة:

"اعني انكلترا٠ هاهنا وطني٠"

وسألها بلهجة غريبة أجفلت لها:

"على الدوام؟"

وبادرت قائلة:

"طبعا ما أغرب تساؤلك يا بول٠"

وخيل اليها أنه متوتر الأعصاب، وهو يسألها:

"الن تتركيني أبدا؟"

فاسرعت تطمئنه:

"انني أحبك يا بول، ولا أظنك تدرك مدى حبي٠ كيف يمكن أن أتركك؟ لا أدري كيف ساورتك فكرة كهذه!"

وشدت على يده بحرارة ورفعتها الى خدها فقال بحنان:

"انني آسف يا حبيبتي٠ أعلم عن يقين انك لن تتركيني٠"

فهمست:

"انك حياتي ولا أتمنى أكثر من أن أكون معك٠ هنا، الى الأبد!"

ظل برهة صامتا، وأصابعه تتخلل برفق مؤخر رأسها، ثم سألها ليغير موضوع حديثها:

"هل زرت ماروﻻ؟"

"أجل٠ وحدثتني عن الدوطة التي لابد أن تمتلكها الفتاة هنا، وقالت أنني موفقة الحظ٠"

وارتسمت على شفتيه ابتسامة تعجب وقال:

"ولكنها تعلم أنك لست قبرصية٠ ما أبعد أن يرتقب قبرصي بيتا اذ يتزوج بانكليزية!"

قالت:

"لأنه لايقدم على الزواج الا عن حب طبعا٠ فلم يعلق بينما قالت:

"أن لغة ماروﻻ الانكليزية تتحسن كل يوم٠ انها تجتهد حقا٠ تعلم نفسها بنفسها من الكتب٠"

وأطلقت ضحكة قصيرة وأردفت:

[redacted]
مكتبة
[redacted]

"ببطء وتمهل ... هكذا شعارها."
فردد ..
"ببطء وتمهل وكررها باليونانية: سيغا .. سيغا .."
وداخلت صوته نبرة لاقرار لها، فرمقته تيسا بنظرة خاطفة..

* * *

وصلت السيارة التي طلبها في اليوم التالي. وكانت لدى تيسا رخصة قيادة دولية، وقد اضطرت لكذبة بسيطة حين أثار الموضوع بعد أن طلب السيارة فقالت وقد شحب وجهها قليلا:
"لقد استخرجت رخصة قبل حضوري اذ خطر لي أنني قد أحتاج اليها."
وأعقب ذلك صمت غريب، ثم قال بول:
"أكنت متأكدة جدا من أنك ستبقين يا لوسيندا؟"
"كلا، ما كنت موقنة من أن صفحك قضية مسلمة. أرجوك يا بول، لا تظن ذلك."
ولم يتحدثا في الموضوع بعد ذلك، وان كانت تيسا أحست بعدم اطمئنان لتقبله ايضاحها. فقد خيل اليها بأن كلماته تضمنت تلميحا ماكرا. ولكنها استبعدت الأمر اذ عجزت عن تحديد ذلك التلميح.
قال بول بعد فترة قصيرة من تسلم السيارة:
"سننطلق لتجربتها الى كيرينيا، فحسب وربما على طول الشاطيء."

واذ ألفت تيسا السيارة دون عناء شرعت تستطيب القيادة الى كيرينيا. وعند المنعطفات، كانت تبدو - من آن لآخر - قمم جبال آسيا الصغرى المكللة بالثلوج، عبر الامتداد الأزرق الشاسع للبحر الأبيض المتوسط. وأخذت تيسا تشرح لبول كل شيء. ولكنه لاذ بصمت غريب، فيما عدا تعليق عابر عن قيادتها، في البداية.
وعندما بلغا المدينة، قادت تيسا السيارة في دروب منحدرة ومتعرجة، حتى وصلت أخيرا الى المرفأ الصغير الشبيه بحدوة الحصان. وأوقفت السيارة، وسألت بول في حماس:
"أنتناول بعض المرطبات هنا؟ الموائد والمقاعد منتشرة عند حافة الماء، هناك كثير من اليخوت الجميلة وقوارب الصيد الصغيرة."
وجلسا يحتسيان الشراب، تحت ظلال الحصن الصليبي الضخم المهيمن على الطرف الشرقي من الميناء.
وسألته:
"أتشم عبير البحر يا بول؟"
فأومأ برأسه، ثم قال:
"حدثيني عن المراكب يا لوسيندا."
"قوارب الصيد بألوان زاهية بهيجة كذلك اليخوت وصور أشرعتها تنعكس على صفحة الماء، مكونة أشكالا عجيبة.."
وسكتت اذ أن بول غير مهتم، بالرغم من أنه هو طلب الوصف، ثم أردفت في قلق:
"هل تود أن ننصرف الآن؟"
فمد يده الى عصاه التي تركها على المقعد المجاور، ونهض قائلا:
"نعم.. هذا ما أظنه."
وكان عشرات القبارصة السمر يجلسون في استرخاء على المقاعد، فحملقوا في بول وهو يبتعد عن مقعده، ويمد يده الى تيسا، وغص حلقها ازاء هذا العجز منه، وساءلت

نفسها: أتراه يفطن الى الفضول الذي أثاره؟ اذا كان يفطن فلا بد أنه يعاني مهانة وأسى لا يطاقان. وفجأة، ودت أن تبتعد به فورا عن العيون والناس.

"سننطلق بالسيارة يا حبيبتي على طول الشاطىء، ونعرج على الكهف الجميل، حيث سبحنا."

قال:

"فكرة ممتازة يا لوسيندا."

ولمحت جبينه يقطب، اذ أردف:

"سنذهب أولا لشراء نظارة سوداء."

وكادت تقف دهشة. ان كثيرا من المكفوفين يرتدون نظارات سوداء ولكنها ما توقعت ابدا أن يفعل بول ذلك.

واشترى النظارات ووضعها في جيبه. ولكنه ارتداها فور أن تركا السيارة عند الكهف. وسألت نفسها في قلق ترى أتؤلمه عيناه؟ وتذكرت كيف كان يحجب الشمس عن عينيه حين وقفت تشاهده بالأمس. وودت أن تسأله، ولكنها أحجمت، فما تحدثا معا مطلقا عن مصيبته.

* * *

وذهبا في مساء يوم الأحد التالي، لحضور احتفال عيد الفصح في دير بيلابيس. كان الميدان غاصا بالأهالي والسياح الذين وفدوا من كيرينيا. ومن المقهى انبعثت انغام البزق. واجتمع حول نار أشتعلت في الميدان عشرات من الشباب المرحين. وسرعان ما قدم مقعدان لبول وتيسا وقالت تيسا لبول:

"اللهب مرتفع جدا، يضيء الأطلال ويكسبها تألقا دافئا جميلا.." وقاطعها في جفاء:

"ألا بد أن ترفعي صوتك؟ لاداعي لأن تخبري الدنيا بأسرها بأنني لا أبصر.."

قالت متلعثمة بعد صمت وجيز مشدوه:

"انني آسفة ما أنتبهت الى أن صوتي كان مرتفعا."

كانت تدرك أن صوتها لم يكن يرتفع عن الهمس لأنها - من البداية- حرصت على الحديث بخفوت، لكي لاتحرج زوجها. ولم يعقب، فأضافت مترددة:

"أن المنظر يبدو جميلا يا بول، فأردت أن أخبرك به."

"لست معدوم التصور، فأنا أشعر بالنار، ومن الجلي أنني أعرف أن النيران تضيء الميدان.."

ولاذت بالصمت بعد ذلك ولكن بول مالبث أن تناول يدها وكأنه شعر بالجرح العميق الذي أحدثه. فقالت هامسة، وقد سرى عمله عنها شيئا ما:

"يبدو أن شيئا ما يجري، فان الحوذيين يتحدثون الى الشرطي، ويلوحون بأيديهم، وكأنهم يحتجون."

فقال:

"أصبت، فقد توقفت الموسيقى، ولاذ الجميع بالهدوء."

وبعد الصمت عاد الصخب ثانية، ولكنه خلا - هذه المرة - من المرح وأبدى الرجل الجالس بجوار بول ملاحظة باليونانية، فهز بول رأسه، واتصل بينهما الحديث. والتفت بول اليها وقال:

"ان الاحتفال لايبدأ قبل الساعة الثانية" فهتفت:

"الثانية صباحا؟ ولكنك قلت، الكل قالوا انه يبدأ في الحادية عشرة والنصف."

"لم يوافق الاسقف على أن يبدأ في الحادية عشرة والنصف. قال أنه ينبغي الا يبدأ قبل الثانية."

وسمع هذا شخص بجانب تيسا، فقال بالانكليزية:

"انه يبدأ دائما في الحادية عشرة والنصف."

وقال شخص آخر ساخطا:

"لن انتظر كل هذه المدة."

وأخذ كل أمرىء يحتج، ولكن عدم وجود قس في المكان جعل الاحتجاج غير مثمر. وسرعان ما انطلقت العربات بركابها المستائين، واطفئت أنوار المقهى، وسلط الماء على النار، وكان بول يصغي لجاره الذي بدا على علم بما كان يجري:

"لقد قطع شبان القرية الكهرباء عن الكنيسة.. وسدوا ثقب مفتاحها بالشمع، حتى اذا وصل القس تعذر عليه الدخول."

ونقل بول الخبر الى تيسا، وفي صوته عجب، وقال صوت من خلفهما:

"لن يكون هنا أحد، على كل حال، اذا ما وصل."

وقال شاب يوناني مليح، في ارتياح بالغ:

"ستنشر الصحف كل هذا.. أنه لم يحدث في بيلابيس من قبل."

قال بول وهو ينهض، اذ بدأ رذاذ الخرطوم المسلط على النار يصل اليهما:

"يحسن أن ننصرف. هيا يا عزيزتي، سنذهب الى مكان آخر."

وكانت تيسا تعتقد بوجوب العودة الى البيت ولكن بول كان مصرا على حضور الاحتفال، فقادت السيارة الى قرية أخرى على بضعة أميال من كيرينيا. وقال بول وهما يهمان بدخول الكنيسة:

"هل أحضرت شمعتي يا لوسيندا؟"

كانت قد أحضرت شمعتين طويلتين، ناولته احداهما، فقال:

"عندما تدخلين ضعي النقود، وخذي شمعة، اشعليها، ولا تشعلي التي معك. سترين - على أية حال - ما يفعله

كل امرىء."

كانت تيسا تدخل كنيسة يونانية لأول مرة وازعجها أن تفطن لنظرات الرجال والنساء، اذ بدا أنها ليست يونانية.

وهمست اذ قادت بول الى حلقة الشموع الموقدة لاشعال شمعته:

"هنا الاشعال."

وتحسس بأصابعه احدى الشموع حتى كادت تبلغ فتيلها، ثم مد شمعته وتبين بأصابعه أنها تجاوزت اللهب. وحاول عدة مرات، فلم يوفق. والتفتت تيسا فاذا عيون كثيرة ترمقه. واستدارت ثانية تتأمله في لوعة وتردد، فقد انذرها هاجس غضبه. ولكن الوقوف ومشاهدة هذا العمل الموجع للقلب كان فوق احتمالها. وانتزعت شمعة موقدة وهي تعيد الشمعة لمكانها:

"انك اشعلتها يا عزيزي، أأغرسها لك؟"

وتردد قليلا، ثم اعطاها اياها. وقال:

"ما عليك الا أرشادي الى أين أذهب، ثم اتركيني."

وتطلعت اليه مشدوهة، وهمست:

"أتركك؟.. لا أستطيع أن أتركك."

وبعد أن قادته لمكان في الصف وقفت ساكنة بجواره، تصغي بعجب للغط الأصوات، كأنما كل أمرىء كان يكلم جاره، ولا يحفل بتخفيض صوته. وانبعث فحيح من بول محنقا، فتراجعت غير مصدقة اذنيها:

"قلت اتركيني اذهبي للطرف الآخر من الكنيسة ألا ترين أنه لا ينبغي لك أن تكوني هنا؟"

ونظرت حولها، فاذا كل النساء في طرف من الكنيسة، والرجال في الطرف الآخر. كان كل امرىء ينظر اليها وهي تقف مع الرجال. ومع أن الدماء تصاعدت حارة الى وجهها، بقيت حائرة مترددة. كيف تتركه؟ ولكنها سمعته يسأل

www.liilas.com/vb3
Sarah

غاضبا اذا كانت بعد باقية، فتحركت بهدوء الى الجانب الآخر، واحتلت مكانا بين عجوزين متشحتين بالسواد.

* * *

ما عهدت مطلقا هذا القدر من التعاسة والحيرة. كان بوسعها أن تفهم مشاعر بول لأنها رفضت الانتقال من جواره، ولكنه كان خليقا بأن يعلم أن قلقها عليه شغلها عن ملاحظة ما كان يجري. وعادت الدموع تترقرق في عينيها، ولكنها بعد قليل حاولت نسيان جرح شعورها والتماس العذر لبول، فلا بد أن الموقف كان بالنسبة اليه أسوأ.

وتمكنت أخيرا من أن ترفع بصرها، فتبينت أنها لم تعد موضع انتباه. وعجبت وهي ترقب الباب: متى يبدأ الاحتفال الديني؟ مازال الناس يتوافدون، يفعون هباتهم ويتناولون شموعهم فيشعلونها ويغرسونها، ثم يتجهون لتقبيل الأيقونات الأربع عشرة، كما أحصتها تيسا. ثم يقبلون الأيقونة التي في وسط الكنيسة بتقدير أكثر مما يبدونه عند تقبيل الأيقونات المعلقة على الحائط. وكانت الأمهات يرفعن اطفالهن اليها.

أستمر هذا نصف الساعة أو أكثر، ثم بدأ الاحتفال أخيرا، بظهور القس وانطلاق الرجال بالانشاد. وما لبثت الأضواء الكهربائية أن أطفئت، وبقيت الشموع وحدها تضيء المكان. واشعل كل امرىء الشمعة التي أحضرها معه، وانساب المصلون نحو الباب. وحاولت تيسا الوصول الى جوار زوجها، ثم فطنت الى أن الرجال كانوا يتقدمون النساء. ماذا

تفعل؟ استولى عليها ذعر فظيع، فلم تحفل بأحد وهي تلحق بالرجال. ولكن بول كان قد اختفى. وبحثت عنه والذعر يزداد بمرور اللحظات. وانطفأت شمعتها، فأشعلها لها رجل. وصاحت وهي تنظر اليه في عجز: زوجي! فأشار عبر الفضاء الى حيث اتجه بعض الرجال، فشكرته وهي تسرع تدفع الرجال عن طريقها، حتى اقتربت منه ثم توقفت لاتجسر على أن يعرف بوجودها. وكانت شمعتها قد أنطفأت ثانية، فأشعلتها من شمعة أخرى. وما فطنت للانشاد وشعرت بأنها لن تحضر ما عاشت احتفالا آخر في كنيسة.

وكان المصلون يدخلون الكنيسة ثانية. ولم تعد تحتمل، فمست كم زوجها. وهمست:

"بول... أنني اشعر بغثيان. أنستطيع.. أتمانع في ان نذهب الى البيت؟"

قال:

"ماذا بك؟"

قالت:

"أنني أشعر.."

وجزعت اذ شرعت تبكي، وقالت:

"أريد أن أذهب الى البيت."

وكانت موافقته مفاجأة ادهشتها، لكنها بادرت الى الأخذ بيده، وبعد دقيقتين كانا في السيارة.

وسألها بقلق، وهي تقود السيارة بتؤدة بحراء الشاطيء، متجهة الى كيرينيا:

"ماذا بك يا عزيزتي؟ أأنت بخير... اعني وأنت تقودين السيارة؟"

فقالت:

"نعم. أنني الآن بخير."

ولزما الصمت بعد ذلك، والسيارة تمضي في هواء

الليل الدافيء، والبحر القاتم الى يسارهما، وجبال كيرينيا غير المنتظمة الى يمينهما. وما أن دخلا بيتهما حتى التفتت الى بول قائلة:

"انني آسفة لما حدث.. ما كنت أعرف أنه لابد لي من أن أكون في الجانب الاخر."

فأحاطها بذراعيه، والصقت وجهها بسترته، وهو يقول:

"طبعا يا عزيزتي... أنا كنت نافذ الصبر. كان ينبغي أن أفهم." ورفع وجهها بحنان. قائلا:

"انسي ما جرى يا لوسيندا. ليس بالامر الهام."

ليس هاما! ما أقل ما يعرف! كل كلمة حادة - وقد استخدم الكلمات الحادة في مناسبات كثيرة، في الفترة الأخيرة - كانت كنصل في قلبها. أمن الممكن للمرء أن يحب بهذه الدرجة، فيحتمل آلام الجراح؟ وأخذت ترتجف فأخذ يواسيها. قالت:

"انني لا أقوى على الاحتمال حين تغضب يا بول ما أفظع الألم!"

ربتتها يداه، لكن شيئا مبهما شاب لمساته فأحست تيسا برغبة غير عادية في أن تفلت منه وقال:

"ما أفظع الألم؟ لابد أنك تحبينني حبا بالغا جدا."

قالت:

"أنك لتعلم هذا."

فقال:

"كل هذا الحب العميق ومع ذلك.." وأمسك فجأة.

ماالذي كان يهم بقوله؟ أكان يتذكر كيف تعرض للنبذ، وكيف لأمرأة فعلت ذلك باستهجان أن تعود لتحبه بهذا القدر؟ ولكنه ما كان يعلم أن التي نبذته والتي تزوجته مختلفتان. وهمس:

"انك تخدعينني يا لوسيندا الحبيبة!"

وكاد قلبها يتوقف، وقد تغضن جبينه في حيرة. وقالت:

"لست أدري ما تعني؟"

"كل هذا التغيير العظيم! ولكن لاداعي لاستثارة الماضي، فلن نكسب شيئا من ذلك."

وحدقت فيه، والحيرة تغيم على عينيها. كانت اشارته الماكرة الى الماضي مقصودة وقد شعرت باقتناع بذلك، ومع ذلك فهو يقول انه لا ينبغي اثارة الماضي، وهمست في قنوط:

"لا تدع شيئا يفسد علينا حياتنا يا بول! لا تتغير يا حبيبي، أرجوك لا تتغير."

قال واصبعه يتحسس دمعة على خدها:

"لن أتغير طبعا يا حبيبتي لوسيندا، انك تبالغين في تفسير كل شيء."

وحس بأصبعه فمها، وشعر بارتجافة فقال بجد:

"ابتسامة! ابتسامة على هاتين الشفتين الجميلتين. وومضة في العينين بسرعة... أريد أن أتأكد من وجودهما."

انفرجت شفتاها، ولكن عينيها ظلتا آسيتين كان ثمة تغيير، تغيير طفيف جدا، لايكاد يكون ملحوظا، يطرأ على زواجهما!

* * *

شاطيء فاروث من أجمل شطئان الجزيرة. وكان شبه خال اذ لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة صباحا، وقد خرجت تيسا وبول للسباحة. كانا قد قضيا يومين حالمين في فندق الملك جورج يشغلان وقتهما بالسباحة، أو زيارة المعالم

أو التريض في تكاسل. وقالت تيسا وهما يغادران الماء ويجلسان على منشفة بسطتها تيسا بينما قدمت لبول غيرها:

"الرمال ذهبية حقا. واخذ يجفف جسمه. ولاحظت تيسا أنه الصق المنشفة بوجهه فترة أطول مما ينبغي ولاح كأنه يضغط عينيه بأصابعه، كما لو كانتا تؤلمانه.

وبعد الافطار زارا المدينة للمرة الثانية. كانا في المرة الاولى قد استقلا سيارة أجرة، ليكون السائق مرشدا أما هذه المرة فقادت تيسا سيارتهما ودخلا المدينة من بوابة البر. وقالت وقلبها صاف كالسماء خفيف كالهواء:

"اننا نعبر الآن الجسر فوق الخندق المائي. في ناحيتك مدخل الحصن يا حبيبي، وله قوس جميل.. وهناك الابراج المحصنة التي حدثنا عنها سائق التاكسي. أأتوقف لتناول القهوة، اذا صادفنا أحد مقاهي الأرصفة؟"

قال:

"نعم يا لوسيندا، يجب أن نتناول القهوة".

وجلسا في الميدان، وتيسا تحدثه عن عمارة الكاتدرائية والقصر الفينيسي. ثم جنح ذهنها لقصة رواها سائق التاكسي عن شجاعة المحارب الفينيسي براغادينو، الذي كان قائد فاماغوستا أثناء حصار ضربه الاتراك تسعة أشهر. وهتفت:

"انني ارتجف اذ اتصور كيف سلخوه حيا؟"

فقال بلهجة غريبة:

"أحسب أن هناك ألوانا من العذاب لا تقل بشاعة. ما أغرب ما يخطر على ذهن الانسان!"

ولمحت وجهه يجمد ويقسو، وفمه يلتوي بشكل بشع، سادي يوحي بالرغبة في التعذيب. لابد أنه كان يفكر في طريقة جهنمية لتعذيب نفسه. سرت في جسمها قشعريرة، وأسرعت تسأله:

"هل ننصرف؟"

وعاودها الدفء في ابتسامته، وهو يقول:

"الأمر لقائد السيارة".

قالت:

"سنذهب الى برج عطيل، حيث أعدمت ديدمونة البريئة بقسوة وحشية وظلم".

وتجاهل بول نبرة المزاح في صوتها وتمتم وكأن الكلمات غير موجهة لأذني زوجته:

"بريئة ترى أين يعثر المرء على امرأة بريئة؟ وافلتت من شفتيه ضحكة واهنة وقال:

"أي عقاب يحيق بأمرأة لا ينطوي على ظلم عادة".

ومحت كلماته الابتسامة عن شفتيها، وغاض السرور من قلبها. ما هذا التلميح الماكر؟ وأحست بأنه ينطبق عليها لقد قضينا يومين هانئين، فما هذا التغير العجيب الذي لا تفسير له؟ وزايلها الحماس، فأخذت تتكلم بلهجة باردة وهي تصف البرج والجدران والكنائس. وقالت لتختصر الجولة اذ لم يتكلم منذ بارحا الميدان:

"لعلك تود العودة للفندق؟"

بمجرد وصولهما الى الفندق بدلا ثيابهما، وتناولا شرابا في الشرفة، ثم ذهبا الى الشاطيء. وما أن جلسا حتى قال بول أنه نسي النظارة الواقية من الشمس.. وأسرعت لفورها تحضرها، وذهنها يموج في اضطراب.. ما الذي طرأ على عينيه فأصبح يعاني منهما؟ وهمت بأن تسأله - عندما أحضرت النظارة - ولكنها عدلت اذ أحست بنذير خطر، وكأنها على شفير هاوية وأي ذكر للماضي قد يؤدي لنكبة.

واذ عادا الى الفندق ليبدلا ثيابهما استعدادا لتناول الشاي، ضمها بول اليه متسائلا اذا كانت تستمتع بأجازتهما.. فأجابت ولكن بغير الصدق الخالص:

"كل الاستمتاع. وأنت يا بول؟"

فأجاب:
"ماذا يشتهي الرجل أكثر من زوجة جميلة محبة، وشمس مشرقة، وبحر دافيء يسبح فيه؟"

كانت كلماته تنطوي على مراوغة بثت الخوف في قلبها. وعادت تقول:
"لم تجب عن سؤالي،"

فقال ويداه تتحسسان كتفيها وظهرها:
"استمتعت بها!.. ما لون البكيني الذي ترتدينه؟" أنه ليس الذي اعتدت ارتداءه."

فقالت:
"هذا أسود وقرنفلي وعقب قائلا: وقصير جدا.. ولكنك كنت متعودة ارتداء ثياب السباحة القصيرة يا لوسيندا وصمت قليلا ثم قال:
"ما أسرع وجيب قلبك!"

وتدافع الدم الى وجهها، وكأنما شعر بول به اذ لمس خدها:
"أتستحين؟ هذا شيء جديد أعلمه عنك يا لوسيندا. فما كنت أظنك تخجلين، لاسيما وقد تزوجت لأكثر من ثلاثة أسابيع."

وشعرت بعياء لا لأن بول كان يسخر منها فحسب، بل لأن نبرة ازدراء شابت صوته. وعاد يتساءل في شيء من التفكه:
"لم تخبريني عن سبب تسارع دقات قلبك. أهو الانفعال؟ أو هل يكون الخوف؟"

وانتظر جوابها دون مرح، فقالت وهي ترتجف:
"بول لست أفهمك في مزاحك هذا فما الذي يدور بذهنك من أفكار؟"

"أفكاري؟ انني احتفظ بها سرا يا لوسيندا. كل تصرفاتي معروفة لك، لأنني بحاجة الى مساعدتك. أما أفكاري فهي ملكي وحدي!"

ودون أن يمهلها لتفكر، جذبها اليه، فاستجابت له، وان راح يخز قلبها ألم رهيب!

* * *

كان العشاء - في مساء ذلك اليوم - بهيجا اذ أن زوجين من الانكليز، كانا قد تجاذبا الحديث مع بول وتيسا - في عدة مناسبات- يتأهبان للرحيل الى انكلترا في اليوم التالي، فاقترحا أن يقضي أربعتهم الأمسية معا. وما أن انتهى العشاء حتى انتقلوا الى المشرب. وكان بول في أفتن حالات المزاج، وقد بدا برونزي السمرة، بالغ الاعتداد بزوجته، يسبغ عليها اعتزازه، حتى لقد بدا الآخران مبهورين بما كان يضفيه عليها.

وما لبث الآخران أن صعدا الى غرفتهما، فقال بول:
"أنخرج لنتنسم الهواء العليل؟"

"وما أن خرجا، حتى سمعت تيسا نداء فالتفتت في دهشة، لتتبين من كان ينادي ثم هتفت:
"مارتن! ما ألطف أن أراك."

وحياها ثم التفت الى بول ولاحظ أنها تمسك بيده. وقال:
"أتتذكرين أنني وعدتك بأن أريك المعالم؟"
"أعرفك بزوجي بول، يا مارتن. هذا مارتن يابول. أظنني ذكرت لك التقائي به في السفينة وأنا قادمة."

وبسط بول يده، في حركة متحفظة، مترددة. ولكن صوته بدا لطيفا وهو يتحدث لحظة أو أثنتين مع الشاب. وأخيرا قال مارتن:

"أرى ان علي أن أنصرف· لقد فاجأتني حقا اذ قدمتني الى زوجك، فما خطر لي أنك جئت لتتزوجي·"

وضحك، ثم حياهما منصرفا الى سيارته·

وتغير مسلك بول بمجرد أن احتواتهما غرفتهما بعد مدة· وكان صوته باردا، جارحا، وقد شد فكه في خشونة:

"اذن كنت قد دبرت معه أن يريك المعالم؟"

فبادرت قائلة:

"كلا·· هكذا قال هو·· وكما ترى لو لم تكن قد أردتني·"

فقاطعها مكملا:

"كنت تعتزمين أن تتزوجي من غيري؟"

وهمست في توجس:

"أنك تخيفني·· ما الذي يجري لزواجنا يابول؟"

وتقدمت منه ووضعت يديها على صدره وقالت:

"لقد وعدتني بأنك لن تتغير·"

فقال بايجاز:

"كل الناس تتغير·"

وحملقت فيه حائرة، كأنها تود أن تقرأ أفكاره، وقالت:

"لكن، لم ينقض شهر على زواجنا، وانا أحبك·"

قال في تهلل:

"تحبينني! أجل أنك تحبينني، وستظلين دوما تحبينني! تعالي فأريني مدى حبك!"

واحتواها بين ذراعيه، بعنف، دون ما احترام، وهو يواصل الكلام:

"أريني مداه، يالوسيندا الغالية، يازوجتي الجميلة التي لا أستطيع أن أراها·"

٥ - الانفجار المخيف

بطيئا·· بطيئا! ظلت الكلمتان تترددان في ذهن تيسا ولكن لماذا؟ وتناهى اليها صوت زوجها خافتا، ناعما:

"ماذا تفعلين يا عزيزتي؟"

ألقت بصرها فوق السياج الحديدي للشرفة، الى الحديقة المزركشة بالزهور· كان بول يجلس في مقعدمريح من القصب والراديو على منضدة قريبة منه· وكان منخفض الصوت حتى أن موسيقى البزق كادت لا تبلغ اذني تيسا، ولم تجب زوجها فوراً· ولاحظت مبهورة أنها للمرة الاولى التي لا تبادر فيها الى اجابته، بل ردت طرفها الى المنظر الثاني للبحر الشاسع، الصافي تتخلل ألوانه، قنوات من زجاج متعرج تعكس التيارات التي تحت السطح· وعلى بعد أكبر كانت اللمعة الفضية تنبسط نحو الخط الذي يغيب فيه البحر في الافق· ثم ارتد بصر تيسا الى الرجل· ومرة أخرى رأته يونانيا خالصا، عنيفا وشجاعا، كان شجاعا قطعا اذ حاول بعد نجاته من النار دون اذى ان يكافح اللهب لمحاولة انقاذ مخبوبته· أي رجل هذا الذي تزوجته ووهبته قلبها من أول نظرة الى عينيه؟ وتقبلت في مرارة أنه ليس كما كانت تعتقد·

وواتاها صوته مرة أخرى، صبورا محبا لطيفا· ما الذي

كان يحاول فعله بها؟ لعبة القط والفأر، يرفعها الى الذرى ثم يهوي بها الى الاعماق وقالت وهي تهبط درج الشرفة الابيض:

"ها أنذا قادمة يا بول، أتريد شيئا؟"

قال:

"أنت يا حبيبتي الحلوة!"

ومد يده في الحاح آمر، وهو يقول:

"ما هذا يا غرامي؟ تعالي."

وانصاعت فجذبها وأجلسها على ركبتيه قائلا:

"كل يوم أتعرف الى شيء جديد عنك يا حبيبتي لوسيندا، اكتشفت توا أنك زوجة متقلبة المزاج."

فمالت نحوه وألصقت خدها بخده، واختلجت اجفانها لتحبس الدموع التي تدافعت وقالت:

"لست متقلبة المزاج يابول، وانما أنا خائفة جدا فقط."

وأرتفع حاجباه قليلا ولكنه ظل على جموده، وقال:

"خائفة؟ ما الذي يخيفك؟"

هزت رأسها في عياء. لم يكن في مزاج يجعله يصغي لمخاوفها. وقالت بعد وهلة، وهي تحاول أن تكون لهجتها أخف وأكثر اشراقا:

"لا تحفل. أنني اليوم متعبة قليلا."

قال:

"لعل صحتك ليست جيدة، لأنك لست كعهدي بك منذ عدة أيام."

واعتدلت تتفرس في ملامحه السمراء. لابد أنه أدرك سبب هذا التغيير، ولابد أنه أدرك تغير سلوكه نحوها. ولكن ظاهره كان ينم عن أنه.. يجهل أنه فعل ما يؤلمها. وازدادت التصاقا به، فشد ذراعيه حولها في وجد.

"اننا لن نتغير يا بول.. عدني بأننا لن نتغير."

"ماذا هناك يا حبيبتي؟ ألست سعيدة؟"

"في الاسبوع الماضي، كنت غاضبا بصدد مارتن، دون ما داع، ومن ذلك الحين أنت فاتر."

وانطلقت منه ضحكة احتجاج، وهو يتساءل:

"أنا الآن فاتر؟ أعترف أنني شعرت بغيرة من ذلك الرجل، ولكني سرعان ما غلبت الغيرة."

كانت لهجته مواسية، وهو يواصل:

"ولقد كان بيننا انسجام رائع، ولابد أنك توافقين على هذا."

وأقرت بذلك. وأخذ بعد ذلك يعاملها بحنان ناعم، ورفعها فيما بعد الى اعالي العاطفة. ولكنه أثناء عودتهما الى البيت بعد يومين عاملها بأقصى فورات الغضب حين اضطرت لأيقاف السيارة فجأة لتتفادى طفلا في الطريق مما زاد أعصابها اضطرابا وهوى بها الى حضيض أكثر عمقا.

"تمالكي نفسك! آمل ألا نقطع المسافة الى البيت بسرعة خمسة أميال في الساعة."

"أنني ارتعد يابول. انك لاتدرك أنني تفاديت الطفل بمجرد بوصات!"

"ولقد تفاديته، فلماذا الضجة؟ اذا كنت لاتتحكمين في أعصابك، فيحسن أن تتخلي عن القيادة."

وازاء حدته ارتكبت تيسا أشنع خطأ، اذ قالت

"انك لم تر ما حدث. لقد برز الطفل من وراء عربة."

وساد صمت رهيب وزادت تيسا من السرعة وما لبث أن قال:

"اصبت يا لوسيندا.. لم أر ما حدث! ولم يزد ولكن هذه الكلمات ونبرته، خلفا أعمق أثر في نفسها. هل كان يحاول جرح شعورها متعمدا؟ اذا صح هذا فهو لم يعد يحبها. وظلت طيلة الطريق تعاني أوجاع سياط كلماته. وفي تلك الليلة أوى بول الى المخدع الذي كان يشغله قبل زواجهما.

ولكنه في اليوم التالي بدا مفعما بالندم مفرطا في الحب والحنان، فسرعان ما استجابت له.

"اما عن فتوري·· فقد بدأت أراك جامحة الخيال يا لوسيندا··"

"ألا تعترف بأنك فاتر؟ قل لي يا بول هل أنت سعيد بقدر ما كنت في البداية؟"

وسألها:

"ماذا تعنين ·· بالبداية؟"

مرة أخرى يشير الى الماضي، ما أمكره! وقالت:

"خلال الاسبوعين أو الثلاثة الأولى من زواجنا؟"

فهز كتفه قائلا:

"شهر العسل لايمتد طيلة الحياة يا عزيزتي·· أن خيالك يجمح ثانية؟ نحن في السعادة نفسها ولكننا أخلدنا الى رتابة الحياة، دعي السخافة وهاتي الصحف، فلست أشتهي أكثر من الاستلقاء في مقعدي والاصغاء لصوتك العذب الجميل··"

واستجابت تيسا ولكن ألما أصبح يسكن قلبها، فما عادت تطمئن الى أن تقلب زوجها عائد الى مصيبته لم تكن تعرف الكثير عن طبيعته عندما تزوجا، ولكنها أصبحت تعلم أن له نوبات تراوح بين نفاذ الصبر والغضب الجامح، أو عدم الاكتراث الى أقوى وأعمق انفعالات الحب·· أو ما كان يبدو أنه حب! وساءلت نفسها: أتراه كان حقا يحبها، أو يحب لوسيندا، كما كانت تزعم؟ وواصلت القراءة وأن لم تستوعب – للمرة الأولى – ما كانت تقرأ، اذ ارتدت أفكارها تسترجع أحداث حياتها في الاسابيع القلائل الاخيرة، كان تغير بول غير ملحوظ في البداية، يثير التوجس ولكنه ما كان يثير الالم قطعا· ولكن تحولا مبهما أخذ يعتري طباعه تدريجيا، واتسعت حدقاتها حين خطر لها شيء أوضح لها ما كتبه أبوها اذ علم بانتحالها شخصية اختها وزواجها من بول، لقد خشي ابوها من تسلل خيط القسوة الذي لا يلبث ان يجعل بول منتقما لايعرف الرحمة·· عقابا للوسيندا·

وتوقفت تيسا عن القراءة اذ امتلأ قلبها بالفزع· كانت تأمل حين تزوجت بول أن تسرق ما كان يكنه من حب لأختها ولكن في مقابل أن تمنحه كل ما يمكن أن يجود به قلبها· فلو افترض – مجرد افتراض – أن حبه للوسيندا كان قد مات نتيجة مسلكها الشنيع، لكان محتملا أن زواجه كان بغية الانتقام·· وارتجفت الصحيفة بين أصابعها، وهبت نسمة فانتزعت ورقة منها حملتها الى الجانب الآخر للحديقة، وتيسا ساهمة في أفكارها·· اذا كان العقاب غايته، والتعذيب طريقته، فالى أية هوة سوداء هي ذاهبة؟

ورفع بول رأسه متسائلا:

"هل تعبت يا حبيبتي؟ لنسترح ونتناول القهوة·"

وودت أن تصارحه بوساوسها، ولكنها لم تجد كلمات تسعفها، فدخلت البيت لتعد القهوة·· وعندما عادت تحملها كان بول مستلقيا في مقعده، وبدا أنه لم يشعر بها، فخاطبته بصوت خافت تنبئه بأن قدح القهوة الى جواره، وقد أذابت فيه السكر، فتولاه عبوس سريع وقال:

"لم أكن أريد سكرا ألا بد من اصرارك على أن تعامليني كطفل وليد؟"

وأسرعت الى البيت وعادت بقدح آخر من القهوة، وقالت:

"ها هي ذي، في ركن المنضدة يابول!"

كانت شفتاه بعد متطابقتين ولاحظت تيسا أن أصابعه كانت متوترة – حين أخذ يتلمس القدح – وفي جانب من عنقه عضلة تنبض وقال وهو يرفع القدح لشفتيه:

"أين أنت؟"

وأردف وهو يعيد القدح، ثم يبسط يده بالحركة المألوفة، التي كانت تلقي استجابة ملهوفة من تيسا:

"لماذا لا تقتربين مني؟ آسف يا حبيبتي· هل كنت حادا؟"

فأجابت ووجهها شاحب:

"لا عليك يا بول."
فقال:
"انك غير سعيدة ياغرامي. تعالي، وقولي انك سامحتني."
وسحبت يدها، وقالت بصوت هادىء، ولكنه حازم:
"هل أنت سعيد يابول؟"
"انني في قمة السعادة! ألست أملك زوجة متيمة بي أكثر مما يطمع في ذلك أي رجل؟"

* * *

ونسيت دورها كلوسيندا، فهي تيسا، وبول هو الزوج الذي أحبته، فقالت:
"أنني بالغة العناية بك، أريد أن أعوض كل شيء. عندما تزوجتك كنت مدفوعة بحبي لك.. فقد كنت دائما أحبك منذ أن التقينا.. وكنت آمل أن نسعد معا.. على الدوام."
فقال وكأنه يحدث نفسه:
"أردت أن تعوضيني كل شيء وأردف وكأنه توصل لقرار ولكنك تعوضيني فعلا يا لوسيندا فان حبك الحب الذي تقولين انك تكنينه منذ البداية، هو كل ماأحتاج.. أريد أن تحبيني الى الابد، وأن أعرف انك لن تتحولي!"

* * *

حدقت فيه بحيرة وخوف، وقالت:
"لست أفهمك يابول. كان كل شيء رائعا.. أما الآن ما الذي يجري يا حبيبي؟" لست أنا التي تتحول، بل أنت!."
فتساءل متجاهلا كلماته الاخيرة:
"انك تستسلمين للوهم ماذا بك. ولم تجب اذ أحست

بعودة التوتر اليه، وكرر سؤاله في الحاح حازم، فلم تجد منفذا للمراوغة، وقالت والارتباك لايجعلها تعرف ما تقول:
"من العسير أن أوضح. عندما كتب لي أبي ذكر.."أمسكت وهي ترتجف، فاستحثها برفق، وهو يضع قدحه جانبا:
"ماذا قال أبوك يا لوسيندا؟ اما كنت تقرأين لي كل الرسائل؟"
وقررت أن تكشف هواجسها: "في الخطاب الاول كتب أبي مبديا دهشته لانك صفحت عني سريعا."
والتفت اليها يستزيدها، فقالت وقد اعتزمت أن تصل الى الحقيقة:
"لقد شعر انك راغب في الانتقام! هل تبغي الانتقام يا بول."
وتسارعت دقات قلبها بدرجة آلمتها، لكنها ظلت مسيطرة:
"كنت حائرة ازاء التغيير الذي الم بك، كنت في البداية تحبني، بدا انك تحبني ثم أخذت تتغير تدريجيا، أسعدتني ثم اتعستني.ما هكذا تعامل الزوجة!"
قال وفي صوته نبرة خافتة، كانت أول اشارة الى أنه يكبح انفعالا قويا:
"هل لديك شكوى من حياتك؟ ما أظنك أصبحت غير راضية فعلا، وزواجنا عمره أسابيع؟"
قالت في تحفظ:
"هذا ما كنت أحاول أن أقول، لقد تبدلنا في وقت قصير. ما كنت أتوقع.."
وسقط القناع، انطلق ما كان يكتم، فاكفهر وجهه الأسود وبدا كانسان وحش، بدائي، لايرحم. وقال:
"ماذا كنت تتوقعين؟ أن تجدي عاشقا مدلها متلهفا، راغبا في استعادتك، معترفا في ذل بفضلك لقاء ما تقدمين؟"
وأمسك والكراهية السوداء تلوي شفتيه، ثم أردف:

"يا لرأيك في نفسك! كنت أرجىء الصفعة الختامية بعض الوقت، لكن ما دمت أثرت الموضوع فهاك الحقيقة.. انما تزوجتك لغرض الانتقام فحسب. فهنئي اباك ببعد نظره الذي اعتدت أن احترمه!"

كانت تيسا قد أدركت ذلك ومع ذلك غشيها سقام بدني وقالت ويداها تتلويان:

"ما أحسبك أحببتني قط! أكان تظاهرا منذ البداية؟"..

وتذكرت الأمل الذي خالجها لمبادرته بالصفح واعتزامها الوطيد أن تسعده، وعرفانها ورضاها بأن تقضي عمرها بجوار الرجل الذي أحبته.. وقال بول:

"أجل، ما أحببتك منذ اليوم الذي نبذتني فيه.. أعرف ما ستقولين، انني وعدت بأن أغفر لك، وان بوسعك العودة الي اذا شئت.. ولكن لو لم تكوني شديدة الاعتداد مترعة بالثقة بنفسك، لحدست أنني كنت أنوي الثأر."

والتوت شفتاه في استهجان، وقال:

"انني اشمئز من غرورك... لقد تجاسرت على المجيء لتعلني بهدوء ندمك، متوقعة الصفح على الفور، أية امرأة انت، حتى تثقي بصفحي كقضية مسلم بها؟ حتى تتوقعيه كحق لك؟ أكرر أن غرورك يمرضني ولا أدري كيف كان يحتمل أن أوليك نظرة ثانية!"

كانت تيسا تنتفض من رأسها لأخمص قدميها، محتملة كل ما كان يقصد به لوسيندا، عاجزة عن الذود عن نفسها. وبعد صمت طويل تكلمت وفي صوتها نداء قانط:

"اما منحتك كل شيء يا بول؟ كنا سعيدين."

فقال وصوته ينحدر الى زمجرة غاضبة، وشحوب قاتم يسري تحت سمرة بشرته:

"كنت أنت سعيدة، مستكينة لغرورك. أما ما اعطيتني فهو.. ظلام طيلة العمر.. هذا ما منحتني يا لوسيندا،

مكتبة [redacted]

[redacted]

فتذكري! ما منحتني شيئا، ولا تمتلكين أن تمنحيني!"

صاحت في لوعة ويداها ممتدتان تحت نظراته غير المبصرة:

"كلا أعطيتك ما هو أكثر، وبوسعي أن أعطيك أكثر وأكثر."

لكن كل أمل في قلبها مات، مزقته مخالب حقده، اذ قال:

"ماذا بوسعك أن تفعلي لي؟"

وتجمدت في مكانها، وهي تكره أن يكون هذا ستار الختام.. واستلقى في مقعده، وقبضتاه مشدودتان في حجره، وقد شوهت الكراهية معالم وجهه، وأخيرا قال بصوت خافت، يشوب سم كلماته رنة انتصار:

"افعلي ما يمليه عليك قلبك يا لوسيندا.. اختاري الطريق الذي تبتغين"."افعلي ما يمليه عليك قلبك." كأنها كلمات أبيها.

وتساءلت:

"هل ستدعني أمكث معك؟ وتبدى الفوز في اختلاجة شفتيه، وقال:

"أحسبك تعرفين ما تتوقعين؟"

ورفعت يديها المرتجفتين الى وجهها، تضغط عينيها بأصابعها، وكأنها تخفف ضغط الدموع التي كانت تناضل لتنفذ من حاجز اليأس الجليدي.

وغمغمت:

"انني أعرف ما أتوقع!."

ومال بول برأسه وكأنه يود أن يلتقط قولها، ثم قال:

"ما يرثى له، انك لم تطلقي عنفوان حبك وقت الحادث يا لوسيندا. كنت تعتقدين أن بوسعك الاستغناء عني. فأنظري أين قادك خطأك؟ انتهت حياتك يا لوسيندا، فانني سأرديك في أعمق أغوار اليأس والتعاسة."

قالت متجاهلة وعيده:

"أما كنت تحبني.. اذ ذاك؟"

قال ويداه تختلجان بانفعال:

"لن أنكر هذا.. كنت أ[illegible]. وأقول هذا لتدركي ضخامة خسارتك، وقد اذكرك بهذا من وقت لآخر، وقد أسمح في بعض المناسبات بأن امنحك السعادة للحظة، لمجرد متعة تعذيبك!"

وأنسابت الدموع غزيرة من عينيها، لامن جراء كلماته وانما لأنه أقر بأنه كان [illegible] لوسيندا، بينما كانت هي تسعى لمجرد نظرة منه، بل تعتز بالابتسامة المزدرية التي كان يخلعها عليها وهو كاره! لقد أخذت لوسيندا كل حبه، وهاهي ذي تيسا تتلقى كل كراهيته! وفاضت بها حسرة مريرة. وجففت دموعها ولكن النهنهة ظلت تهز كيانها، فتجلت على وجه بول ابتسامة راضية، وقال:

"لن تجديك الدموع شيئًا يا حسنائي لوسيندا، ولكن واصلي البكاء فكم يمتعني أن تتعذبي!"

وأمسك لحظة، واجفلت تيسا لقسوة لهجته، اذ عاود الكلام:

"هذا لا يذكر بجانب ما ستعانين قبل أن أفرغ منك أن حبك سلاحي، وأقسم بالله أنني سأستغله أكمل استغلال، وسأسمعك وأنت تصرخين طالبة الرحمة واذ ذاك ستدركين العمق الحقيقي لكراهيتي لك!"

* * *

ولم يطل الانتظار فبعد اسبوعين استمتع بول بسماعها تهتف بصوت محتبس:

"لا تفعل هذا بي يا بول، انك تصلبني حية!"

فانطلقت منه ابتسامة خشنة وقال بشماتة مزهوة:

"فلتتعذبي يا لوسيندا، انني أحب أن أدرك مدى عذابك.. فأي عذاب اسلمتني انت اليه؟ هل تعانين ما كنت أعانيه في ذلك الوقت؟"

وامتدت يداها في ضراعة، ولكنها ردتهما الى جانبيها قنوطا وقالت:

"لا سبيل للمقارنة بين العذاب العقلي والعذاب البدني.. أنني عاجزة عن الاستمرار!".

واعتدل في جلسته، وخيل لتيسا ان كل لون انحسر عن صدغه وقال:

"هل تودين أن تتركيني؟"

وترددت فلوسيندا كانت خليقة بأن تتركه، أما هي فكانت تيسا وقد تزوجته منتحلة غير شخصيتها، فمما تشكو، وكيف تهدد بأن تهجره؟ انها هي التي سعت الى ما أصابها، ولا لوم على بول وهمست:

"أنني لن اتركك أبدا".

واضافت وقد أحست فجأة بألم يعتصر قلبها:

"في يوم ما يا بول ربما بعد أجل طويل، ستغفر لي، وقد ننعم بالسعادة معا".

وخيل اليها أن ومضة عاطفية عبرت وجهه، أم تراها كانت واهمة؟ على أنه قال:

"لن ننعم بالسعادة معا أبدا، لأنني أبدا لن أصفح عنك ما عشت!"

لم تعد تيسا ترى في بول سوى رجل يوناني، يوناني قح بدون أية قشرة من الحضارة الغربية. كانت لديه مجرد مملوكة مسخرة لاشباع شهواته، وخدمته واطاعة أوامره، ولو كان هذا مدى انتقامه، لاحتملت في فلسفة ولنشدت التعويض في أن تكون بقربه. ولكن بول لم يكن ينوي أن يقصر عقابه على عدم الاكتراث بها، بل أخذ ينتهز كل فرصة لاذلالها،

www.liilas.com/vb3
Sarah

وتذكيرها بالماضي، وابراز الخسة التي نبذته بها، وكم ودت لو أنها ظلت صامتة فان العذاب البطيء كان أرحم من هذا، كان ثأره يتصاعد تدريجيا، ببطء موجع. لن أصفح عنك ما حييت!

كانت هذه الكلمات تتغلغل في عقلها الباطني، ترى هل اعتزم قضاء العمر في شقاء؟ كان يقصد كل مافي هذه الكلمات من معنى، ولكن قد يلين الزمن قسوته، فعليها أن تصبر وتأمل.

وكانا قد تناولا الشاي في الشرفة ذات أصيل، حين سمعت صوت سيارة مقبلة فنظرت اليها ثم قالت لبول:

"هذا ستيفانوس."

كان ستيفانوس رئيس البلدة المجاورة وقد عرفه بول قبل مجيئها، وأصبح زائره الوحيد وهمس لها والزائر يجتاز الحديقة اليهما:

"تذكري أن كلا منا متعلق بالآخر فستتعذبين اذا خذلتني."

فقالت في هدوء:

"لن أخذلك. فلست أقل منك رغبة في ألا يرانا الناس غير سعيدين!"

وابتسمت لستيفانوس اذ حياها، وجلس الثلاثة يتجاذبون الحديث بعد أن جاءهم تاكي بالمشروبات، وقال ستيفانوس مشيرا الى حرصها - في بداية قدومها - على فتح النوافذ لتنساب الشمس خلالها:

"ما رأيك في طقسنا يا مدام لوسيندا أما زلت تكرهين أن تصدي الشمس؟"

واغتصبت تيسا ضحكة. كان قد تكهن بأنها ستعود لاغلاق المصاريع. حين تألف طقس الجزيرة. وقالت:

"انك على صواب، أحيانا. لايدري المرء ماذا يفعل ليتخفف من الحر."

فقال:

"وهكذا صرت تغلقين المصاريع؟"

وشرد بصرها الى بول كان قد رفع يداه الى رأسه يحجب الضوء عن عينيه، وكان طيلة الاسبوع السابق يشكو صداعا فقالت بقلق:

"هل يؤلمك رأسك يا بول؟"

"قليلا يا لوسيندا. عساك أن تأتيني بنظارتي من غرفة الجلوس."

وأسرعت بالنهوض. ولاحظت أن ستيفانوس قطب جبينه في حيرة وبدا أن المنظار الواقي من الشمس أراح بول بمجرد أن وضعه على عينيه، وعاد يضحك لفكاهات ضيفه، وما لبث ستيفانوس أن قال لتيسا:

"سيقام عرس في قريتنا، فلعلك تأتين لترينه؟"

وأجابت:

"كم أتمنى ذلك؟"

ثم التفتت الى زوجها قائلة:

"هل توافق يا بول؟ هل تود أن ترى.. ان تذهب الى القرية؟"

وخفق قلبها في عنف لماذا لم تفكر قبل الكلام، تفاديا للزلل! وأذ قال بول أنه غير مشوق للذهاب، بادرت في حزم:

"أذا فلن أذهب.. بدونك."

وساد صمت، وبول يعجب من أنها لاتتلهف لفرصة الذهاب وحدها، والتحرر منه قليلا، ورمقها ستيفانوس بفضول، وقال:

"ألن تذهبي بدون زوجك؟ اقنعها يا بول، وسأحضر بنفسي لاصطحابها."

وألح بول وهي مشدوهة: أيفعل هذا لمجرد التستر أمام ستيفانوس؟ وترددت، ثم هزت رأسها رافضة. فأهاب الضيف ببول:

"أذا فلا بد أن تذهب يا بول، فلا بد أن زوجتك

تتوق للذهاب٠"

وأدار بول رأسه ببطء وقال وفي صوته رنة غريبة:

"نعم يا ستيفانوس يجب أن أذهب متى سيكون العرس؟"

"ليس قبل أسبوعين٠٠ سأزوركما ثانية قبله٠"

قالت تيسا:

"هل تمتلك العروس بيتا جميلا؟"

الواقع انها لم تكن تمتلك بيتا، لكنها كانت محظوظة فان عريسها كان بلا أهل، فكان البيت الذي يقيم فيه مملوكا له وحده٠"

وقالت تيسا:

"لابد أنه زواج قائم على الحب٠"

وأجاب ستيفانوس:

"أظن هذا أتستغربين عادة وجوب أن تمتلك العروس منزلا؟"

فأجابت:

"طبعا فنحن في انكلترا نتزوج عن حب دائما وخفت صوتها، اذ لاحظت أن بول رفع حاجبيه، لينم عن دهشة ساخرة، وكأنه يذكرها بأن زواجهما لم يقم على حب أو بالاحرى على حب متبادل٠

وفي اليوم التالي كانا يجلسان في الحديقة، وبول يصغي الى الراديو وقد اداره خافتا، وتيسا تكتب رسالة لأبيها، وسألها بول - اذ فرغت - عما كانت تفعل، فقالت دون تفكير:

"كتبت رسالة الى أبي٠"

وإذ ذاك قال:

"لأبيك٠٠ لأبيك وحده؟٠"

فأسرعت تقول:

"ولأمي كذلك٠٠ طبعا والتفتت، فأدهشها أن يبدو وكأنه يبسط بصره فقالت دون روية:

"أتستطيع أن ترى؟"

"ماهذا السؤال؟ انك تعلمين تماما أنني لا أرى٠"

وأفلت القلم منها، وتلعثمت محاولة أن تعتذر، فقال:

"لا تكترثي أقرأي لي الخطاب٠"

وتساءلت في دهشة:

"هل أقرأه٠٠ لك؟"

وابتلعت ريقها بعناء، اذ قال بجفاء:

"هكذا قلت٠"

كان مسلكه ينم عن شك ذكرها بسؤاله- من عهد قريب - اذا كانت أخبرت والديها بما يفعله بها٠ ونفت ذلك، ولكن قسماته الآن كانت تنم عن فضول كبير لمعرفة ما كتبت في الخطاب٠ ولم يكن بوسعها أن تتهرب، وألا لعانت سياط كلماته لخمس دقائق على الاقل، يتلوها صمت يطول ساعات، وهو يتأمل مكتئبا رفضها أمره، وأجرت عينيها في الصفحة مرتبكة تلتقط بعض فقرات تقرأها متلعثمة، فلم تذكر لأبيها شيئا عما يجري، خشية أن يعاني القلق من أجلها، ولكن الخطاب كان يتضمن تلميحات الى انتحالها شخصية لوسيندا، واختتمت قائلة: وقد انتهيت بقول:

"بول بخير ونحن جد سعيدين، وكأننا في رحلة ترويحية، ولا أتمنى سوى، لو كان بوسعك وأمي الحضور٠"

وأشتد أرتعادها، وهو يتمتم ببطء، وعيناه نحوها في وضعهما السابق:

"أذن فالرسالة لأبيك فقط؟ ولماذا لايكون بوسعهما الحضور يالوسيندا؟"

قالت متلعثمة:

"أخطأت القراءة يابول٠٠ أنما كنت اعني٠"

هتف في عجب:

"أخطأت؟ ألا تحسنين قراءة خطك؟"

فندت منها ضحكة مرتجفة وقالت:

"انه خط بشع."

وتولاها فزع، فقد كان خط لوسيندا دائما مثيرا للاعجاب، وأردفت: "كنت أكتب والورق مسند الى ركبتي، فالخط غير متسق." كان عذرا بعيدا عن الاقناع، فلم يدهشها الصمت الطويل الذي أعقبته، وأخيرا سألها بصوت خافت وهو يستلقي في مقعده:

"اقرأي لي مزيدا من الخطاب."

وفي يأس تولد عن ذعر، راحت تلتقط نتفا من الخطاب، بعبارات غير مترابطة، وبصوت متسلخ بالانفعال، واذ ألقت نظرة نحو زوجها، رأت العبوس الكثيف الذي ران على جبينه، وأخيرا قالت:

"هذا كل شيء ما عدا الختام طبعا."

فقال اقرأيه!"

ودهشت ثم قالت:

"أبلغتهما حبنا معا، ووقعت باسمي."

واقسمت في نفسها ألا تكتب خطابها بعد ذلك الا وهي في خلوة تامة!

٦ - السهام لا ترتد

انقضى يومان بعد حادث الخطاب، قبل أن تستطيع تيسا تمالك أنفاسها. كانت حتى ذلك الحين تحمل عبئا بسيطا من الخوف، شعورا بأن زوجها مغرق في تدبيرهما، لوضعهما. فلما لم يذكر مزيداً استخلصت أن قلقها لايستند الى أساس.

وقال وهما يتناولان الفطور:

"سنذهب الى كيرينيا لأشتري بعض الاشياء."

فسألته:

"هل أذهب لاحضار البريد أولا؟"

قال:

"سيحضره تاكي."

بلغا كيرينيا في الساعة التاسعة، فسألته وهي تمسك بيده، اذ غادرا السيارة:

"ماذا تبتغي شراءه؟"

قال باقتضاب وخشونة مباغتة:

"خذيني الى صيدلي. يجب أن أحصل على دواء لصداعي."

وطرفت الدموع من عينيها، وهي تسأله:

"هل يشتد ايلامه؟"

وشعرت بشيء من السخط على ال[illegible]ر أو الطبيعة أو أي

شيء الذي يؤلم زوجها بهذه الدرجة. كانت بلواه القطيعة كافية، لكنه منى فوقها أخيرا بهذا الألم الذي حرمه حتى متعة الراديو، اذ كان في الاسبوع الأخير يخفض صوت الراديو حتى لا يكاد يسمعه، أو يسكته تماما. وقد أطفأه - في المساء الماضي - ثم جلس أكثر من ساعتين واضعا رأسه بين يديه لا يتحرك ولا يتكلم، وهي لا تجرؤ على انتهاك الصمت، لأن طباعه لم تكن تطاق اذا تسلطت عليه نوبة الصداع.

قال:

"هل نحن في الشارع الرئيسي؟"

فأجابت:

"تركت السيارة عند الشاطيء بقرب المقهى."

فقال محتدا:

"أما كان بوسعك اختيار مكان أقرب؟"

قالت في هدوء:

"الطريق مزدحمة، وهناك كثير من الحفر."

وكان جوابه:

"اذا كانت الحفر كبيرة فلا بدأن بوسعك رؤيتها وتفاديها."

وأردف بجفاء:

"لن أطوف بالمدينة ليتفرج الناس علي."

وانكمشت ازاء خشونته، وقالت بدهشة:

"ما الذي تظنه يجعل الناس يتفرجون عليك؟"

قال:

"يكفي تشبثي بيدك هكذا."

وعلت شفتيها ابتسامة مريرة، لكنها تلطفت قائلة:

"كثير من الأزواج يسيرون متماسكي الأيدي. ما من أحد يولينا أتفه انتباه."

قال:

"هذا ما تقولين، لكني لست ناقص الذكاء."

وفي الصيدليه، أخذ يكلم الصيدلي باليونانية، وهي تراقب ملامح الرجل، اذ بدا الاهتمام على وجهه، وأخذ يهز رأسه وكأنه في حيرة من الاعراض التي كان بول يصفها. ومالبث أن اعطاه شيئا، فخفت تيسا الى جواره وسألته:

"هل نتناول بعض المشروبات في المقهى؟ لايوجد سوى نفر قليل حول الموائد."

وهز كتفيه في غير اكتراث. وأخذت تصف له - اذ جلسا الى احدى الموائد - ما حولهما ثم قالت:

"وهناك يخوت شراعية، نظيفة وزاهية."

فسألها:

"أهناك اناس على اليخوت؟"

وارتجفت شفتاها، اذ أدركت أين اتجه تفكيره، اذ كان يمتلك في انكلترا يختا نهريا جميلا، كان يصطحب لوسيندا اليه يوم الأحد من كل أسبوع، وقد جاءت الأسرة كلها في احدى العطلات الأسبوعية، وكانت تيسا تتذكر ما خالط سرورها - اذ ذاك - من ألم اذ اضطرت لمشاهدة ماكان بول يوليه اختها من شغف وحنان.

واذ أفرغ قدح القهوة التركية بدا متململا، ضائقا بالحياة تقريبا، ثم قال:

"لنعد الى البيت!"

وقالت وهي تنهض:

"ألا نذهب الى المتحف يا بول؟ سيكون هذا لونا من التغيير، وسيكون الجو لطيفا في داخله."

قال في فتور:

"حسنا جدا، لك ما تشائين."

فقالت في تردد:

"انني لا أريد أن..."

وقطع عليها الاسترسال في خشونة:

"كفي عن الجدل بصدد كل شيء بحق السماء يا لوسيندا! .. اذا كنا سنزور المتحف فلنذهب دون ما جلبة!."

والواقع أن رغبتها في زيارة المتحف خمدت، لكنها لم تشأ أن تقول له هذا.

* * *

استقبلهما أمين المتحف مرحبا .. وشرع يحدثهما عن المتحف ونشأته ومحتوياته، ثم اصطحبهما في جولة، وهو يشرح كل شيء. وزايل بول سأمه ونشط اهتمامه، كان ثمة كثير من صناديق جهاز العرائس التي كانت كما قال الأمين تصنع من خشب الأرز وتزين بالنقوش وتملأ بأرق وأجمل البياضات. واستجابة لطلب بول أخذت تيسا تصف له دقائق النقوش، فشاهدت على أساريره معالم الارتياح، وفتح الأمين أحد الصناديق وقال:

"هذه الأقمشة المطرزة أمثلة لما كان يوجد في الصناديق، وأخذت تيسا تصف لبول كل شيء."

وقال أمين المتحف، وقد وقف بهما عند سرير جميل من الخشب المزخرف:

"هذا سرير الزواج."

فقالت تيسا لبول:

"انه أشبه بمهد الطفل. يحيط به سياج من ثلاث جهات."

فقال الأمين:

"هكذا كان سرير الزواج، ولابد أن يكون بهذا الارتفاع، انه تقليد متعارف عليه."

وكان غطاء السرير من الحرير المطرز ببراعة وشاهدا الثياب التي كانت ترتديها العروس - وكلها مطرزة باليد - ومقعدا مزخرفا بالحفر والنقوش الملونة، كانت تجلس عليه العروس وهي تتقبل التهاني والهدايا، فقالت في دهشة:

"المرء يتصور أن الرجل - في الشرق - هو المستأثر بالأهمية ولكني أرى المرأة كانت موضع اعزاز في ملابسات الزفاف."

ابتسم أمين المتحف قائلا:

"المجتمع القبرصي قوامه المرأة أصلا. ويؤسفني أن الرجل من الغرور بحيث يحسب نفسه السيد... فالبيت ملك للمرأة، والأطفال لها، وهي صاحبة السلطان. فاذا ماتت قبل الرجل لا يحق له الزواج ثانية."

هتفت تيسا ملتفتة الى بول:

"لا يتزوج ثانية... ما سمعت بهذا القول."

فقال بهدوء:

"القانون لا يرحم هذا، ولكن الناس لاتعفو عنه. وقد سمعت بأرامل من الرجال تزوجوا بعد فترة معقوله، ولكن كل أصدقائهم وجيرانهم تراجعوا عنهم."

وأقره أمين المتحف قائلا:

"اذا ترمل رجل، فهو راضي النفس على أن يعيش بقية عمره وحيدا."

فتساءلت:

"أهذا شأن المرأة كذلك؟"

قال الأمين:

"نعم.. هو ذلك..."

وسألها بول- في عجب ساخر- وقد استقر في شرفة دارهما، في المساء:

"ألست تقرين تقليد عدم الزواج ثانية؟ أتتزوجين اذا أصابني شيء؟"

كانت في صوته نبرة غريبة، غاض لها دم تيسا وهي تتذكر نوبات الصداع وتتصور أرهب الأمور، وقالت:
"حسبك يا بول، اتخذ أية طريقة تشاء لايذائي، الا ترديد هذا القول."
ولكنه ضحك، وقال مبدلا الموضوع:
"انك تحاولين جاهدة يالوسيندا. كما تتعبين حين نكون خارج البيت، اذ تصفين لي كل شيء بدقائقه. يالصبرك! أنني لأرى كل شيء بعينيك الجميلتين."
فتساءلت برفق:
"أعدت تلهو بي يا بول؟"
فاذا بمسلكه يتغير تماما، فيصيح محتدا:
"لم لا ترحلين عني؟"
ثم أردف بقسوة:
"انك فعلتها مرة.. فماذا يدعوك للبقاء؟"
قالت ببساطة:
"أنني أحبك."
فأخذت قبضتاه تشتدان وتنبسطان، وقد بدا ان مشاعره تأثرت وقال:
"وأنا أكرهك! انك لغز يحيرني. هل حبك من القوة بحيث يجعلك راغبة في تحمل هذا الجحيم بقية عمرك؟"
"قد ترى يوما انني تلقيت من العقاب ما يكفي!"
فهز رأسه قائلا:
"هذا قدرك يا لوسيندا. سأسحقك. سأعذبك بينما تتشبثين بالأمل طيلة الوقت. سأحول أملك الى ذبابة تظل تتلوى في جوفك حتى تبلغ نزعات الموت."
ونضبت آخر قطرة دم من وجهها. لم يكن هذا بول الذي عرفته في انكلترا. أنه لم ينزع القشرة - التي ذكرها أبوها - فحسب، بل ارتد في الزمن الى عصور كان اجداده

فيها يوقعون بأعدائهم أشد ألوان العذاب وحشية، قبل أن يسلموهم الى موت بلا رحمة. وتأملت وجهه، فاذا به مظلم حقود يتلوى بالشر الذي أخذ يزداد شيطانية، كان شيطانا، لايعرف الرحمة. وضاعفت شقوتها حسرة بالغة، كثيرا ما كانت شقيقتها لوسيندا تجعلها كبش فداء في بعض المناسبات وهاهو الأمر يتكرر ثانية. صحيح أنه لم يكن لأختها يد في هذا، ولكن العذاب كان قدرها! بينما أفلتت منه اختها، وأصبحت تهنأ بخطبة جو وتسعى الى مستقبل سعيد... وهتفت تيسا لنفسها وهي كسيرة الفؤاد: ولكنني اقبلت على هذا بمحض اختياري، فبأي حق أشكو؟ ان بول يستمتع بانتقامه، ولا أملك أن ألومه لأن لوسيندا كانت تستحق العقاب على ما أذت به مشاعره!
وسألها بخشونة آمرة، موجها عينيه غير المبصرتين اليها وكأنه يود قراءة افكارها:
"فيم تفكرين؟"
فغمغمت بصوت أجش:
"لا أستطيع أن أخبرك ولكنك لو عرفت ما خالج قلبي، فقد لا ترغب في أيذائي الى هذا القدر."
قال:
"أو تتوسلين طلبا للرأفة؟"
فردت:
"لن يكون لهذا نفع كبير."
وأشاح عنها. أتراها لمست عواطفه؟ ولكن القنوط طغى عليها. لماذا تواصل اذكاء الأمل، وقد أقسم منذ لحظة بغير ما شفقة أن يدمرها!
"أصبت يا لوسيندا، لن يكون لهذا نفع كبير!"

* * *

صاحت ماروﻻ من باب الفندق، اذ مرت تيسا في طريقها الى القرية:

"مدام لوسيندا ."

ولوحت تيسا بيدها مواصلة سيرها، ولكن ماروﻻ نادت ثانية، فترددت، وهي تتنحى لتسمح لفلاح بالمرور وكشف عن أسنانه القاتمة مبتسما، وهو يحييها:

"كاليميرا ."

فردت التحية، ثم ابتسمت لزوجته، وهي تعتلي حمارا، تجلس بجانبه كعادة القبرصيات، وتبعها طفلان جميلان شديدا السمرة صبي وبنت، وكانت البنت تمسك بعصا تهش بها على قطيع من الماعز بينما كان كلبها ينبح في رجل أقبل على دراجة... كان كل امرىء يبتسم للآخر، ويحييه. واذ مرت الاسرة بعنزاتها، التفتت تيسا الى ماروﻻ، تحدجها بنظرة متسائلة فقالت هذه:

"هناك سيد يقود سيارة مستأجرة، جاء للفندق يسألني ان كنت أعرف مكان السيد بافلوس ديمتريوس فأخبرته. ولكن سبيروس يقول انه رآه في الجانب الآخر للتل، وأظنه لم يفهم ارشادي ."

وسارت اليها تيسا متسائلة:

"سيد؟ هل ذكر أسمه؟"

فأجابت:

"نسيت أن أسأله. قال انه جاء من انكلترا بحثا عن السيد بافلوس ."

وتسارع نبض تيسا:

"من أنكلترا؟ ترى من يكون؟"

وأردفت ماروﻻ:

"انه أشقر الشعر، طويل يقول أنه والسيد بافلوس كانا صديقين في انكلترا. وأخبرته بأن السيد بافلوس تزوج

من مدام لوسيندا ."

وأبتسمت ثم أسترسلت:

"اتسعت عيناه هكذا وقال ."

"اوه! أهكذا؟ ما قولك يا مدام لوسيندا؟"

فتساءلت تيسا وهي شاردة الذهن خافقة القلب:

"هل دهش؟"

انه جو فقد قال أنه كان يعتزم قضاء عطلة في قبرص، ويحاول العثور على بول ومضت ماروﻻ تقول:

"نعم دهش ووجه أسئلة كثيرة عنك وعن السيد بافلوس، ثم انطلق يسعى الى البيت، ولكنه أخطأ الطريق، ألم تريه؟"

وقبل أن تستمع للجواب، صاحت:

"ها هوذا، لقد عاد هذه سيارته صاعدة من القرية. لابد انه ضل فعاد ليسترشد ."

تحولت تيسا مأخوذة ترقب السيارة المقبلة وخلفها سحابة من الغبار. وتفككت أوصالها، وشحب وجهها حين وصلت السيارة، وهبط منها جو وأومضت عيناه اذ وقعتا على تيسا ولكنه كبح أي مظهر آخر للدهشة. وهتف:

"حسنا، ما أجمل أن ألتقي بك. كيف وجدت الحياة الزوجية يا... مدام لوسيندا؟"

وتضرج وجهها، وهو يضيف:

"انك تلوحين جميلة حقا... والسمرة تلائمك ."

وكانت ماروﻻ تراقبهما بفضول وتساءلت تيسا:

"انني.. جو لماذا جئت؟"

فقال:

"أخذت أجازتي مبكرا، فقررت بلا ترو أن أجيء لأعثر على بول ."

وصمت لحظة ثم قال بصوت لاينم عن تعبير ما:

"سألت اباك عنك، فقال انك عدت للتدريس في تركيا ."

وبادرت قائلة:

"ما كان أبي يتعمد الكذب ولكني رجوته ألا يذكر شيئا لأحد."

وأقبل سبيروس اذ ذاك، فسألهما عما يتناولان، وتنهدت ارتياحا لأن ظهوره قطع الحديث. فقالت:

"سأتناول عصير البرتقال."

ثم التفتت الى جو وقالت:

"جرب أن تذوق شرابا قبرصيا."

ودخل سبيروس الفندق، تتبعه زوجته، فتحول جو توا نحو تيسا قائلا:

"يا لأعصابك يافتاة! ما كنت أصدق هذه الجرأة منك! لقد ترنحت حين حدثتني مارولا عن مدام لوسيندا التي أصبحت زوجة بول أدركت انك هي فما كان لغيرك أن يفعل هذا.. ولكن، كيف - بحق السماء - ستخرجين من المأزق.. انه خليق بأن يكتشف الأمر يوما."

فقالت:

"انه لم يكتشف حتى الآن!"

هز رأسه مذهولا، وقال بصراحة غلبت على أي تلطف:

"أنني لا أتصور - في المقام الأول - كيف تمكنت من أن تخدعيه."

فمست ركني شفتيها ابتسامة، وقالت:

"أن بنيان جسمي وجسم لوسيندا واحد، فلم يفطن لأي اختلاف. والواضح أنه غفل عن أنفي الافطس. وشفتا كل منا ممتلئتان، فلم يلاحظ أي فارق."

وبدت في صوتها مرارة، جعلت جو يصيح:

"ومع ذلك، فأنت غير سعيدة ياتيسا!."

كان قلقه شديدا فتضرج وجهها، ولكنها قبل أن تتكلم نهضت الى مدخل الفندق حيث كانت مارولا تجلس وقالت لها:

"أنستطيع أن ندخل الاستراحة؟"

فأجابت:

"لك أن تذهبي حيث تشائين هنا يا مدام لوسيندا."

وبعددقائق، كانت تيسا و جو في غرفة الجلوس المنعزلة فبادرت باغلاق بابها، وهي تقول:

"ان مارولا تحب دائما معرفة ما يدور، اذا سمعت شيئا فسينتشر في القرية خلال ساعة!."

وظل ساهما، ثم قال يشجعها:

"حدثي العم جو بما هناك، أصارحك بأن أسئلتك عن بول كانت قد شغلتني، وانتهيت الى أنك ستحاولين زيارته، ولكني ما تصورت اطلاقا أمرا كالزواج."

وروت تيسا كل شيء والدموع تترقرق في عينيها، فصاح حين فرغت:

"مسكينة انت يا صغيرتي! لماذ تتلقين العقاب عن لوسيندا؟ أخبريه بالحقيقة!"

قالت وهي تهز رأسها بحزم:

"ما كان يبالي بي ابدا ياجو، بل كان ينفر مني، اذ ظن أنني أطارده."

وروت له ما سمعته ليلة أقام جو حفلته، فاكفهر وجهه، وأشار في عجز:

"أسمعت هذا؟ وما الذي ينبغي الآن؟"

فقالت باستسلام:

"لاشيء، يجب أن أتحمل، وأن آمل في مـ[illegible]ـرة، فقد يلين يوما!"

"ولكنك قلت توا أنه أكد جازما أنه لن يلين!"

فهزت كتفيها قائلة:

"ما أدراه بما ستكون عليه مشاعره بعد عشر سنوات؟"

فصاح في جزع:

"عشر سنوات؟ أنها عمر آخر يا تيسا."

فرمته بتلك الابتسامة التي تمتزج فيها العذوبة بالتهيب والاحجام، والتي اعتادت أن توجهها لزوجها ، وقالت:

"انني قادرة على الانتظار عشر سنوات بل عشرين، وبرغم ما يقوله بول، فانني موقنة أنه لن يقتل أملي يوما ."

وازدرد جو آخر جرعة من الشراب بعناء وقال:

"لست أدري كيف أستطعت أن توغلي في التورط، ولكن كيف تواصلين الاهتمام برجل هذه معاملته لك؟"

فقالت:

"انه لا يعاملني أنا فهو انما يعاقب لوسيندا ."

فصاح في غضب:

"لوسيندا أفلتت! انها تلهو وتضحك ولا تحفل بشيء، متعلقة بذراع ذلك الغبي، محملقة في عينيه كتلميذة متيمة حبا ، بينما تتلقين أنت ذلك العقاب عنها! هذا ظلم وخطأ، ولن تكوني أسوأ حالا اذا اخبرت بول بالحقيقة ."

فقالت بلهجة حاسمة:

"لن أخبره! ."

وما لبثت أن سألته:

"أقادم انت لرؤية بول الآن؟"

قال:

"طبعا .. سنصعد معا في السيارة ."

حذرته تيسا في الطريق من أن يزل لسانه، وكانت في صوتها رنة خوف فقال:

"اطمئني، فان سرك في أمان، باستمرار ."

أذ ذاك عاودتها الابتسامة وقالت:

"أتوقع أن يرغب بول في خداعك، بحيث نتصرف وكأننا لانزال متحابين ."

وتهدج صوتها، وبكت، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها ، ونظرت اليه معتذرة فتفرس في وجهها - في عجب - وقال:

[illegible] يس ، لك جمال لن تحظى به لوسيندا أبدا ، [illegible] يسع من اعماقك، هل فعل بك الحب هذا ؟"

وضغط يدها قائلا:

"أنك منيعة لاتنثنين، فتشبثي بالأمل، لان حبا مثل حبك لابد أن يتغلب في النهاية ."

وأشرقت نظراتها للحظة عابرة ثم قالت:

"أتظن أنه قد يصفح عني أقصد عن لوسيندا ؟ أعتقد انه سيكف يوما عن أن يبغضني فنسعد معا ؟"

فأجاب بصوت أجش:

"لابد من يوم تسعدين فيه!"

ولم تفطن الى أنه أغفل سؤاليها الاولين متعمدا !

* * *

اختلطت مشاعر تيسا وهي تقود جو الى داخل البيت، وتنادي زوجها . لقد اعتزل بول كل امرىء في انكلترا ، ولم يعط عنوانه لأحد، فظل عزوفا عن الاتصال- ولو بالرسائل- بأصدقائه . فكيف تراه يستقبل جو؟ واذ لم تتلق تيسا جوابا لندائها ، فأخذت تبحث عنه، ووجدته مستلقيا في مخدعه القديم، وقد أغلق المصاريع الخشبية للنوافذ، دون الزجاج، ليتسلل الهواء خلالها .

همست:

"بول.. أنائم أنت ؟ ."

فأجاب بضيق:

"كلا ماذا تريدين؟"

"هناك زائر ولكن هل يؤلمك الصداع يا بول؟"
قال:
"قليلا."
ثم استوى جالسا وانزلق من الفراش قائلا:
"زائر؟"
"من انكلترا. انه جو جاء من انكلترا خصيصا ليبحث عنك."
وعلى الضوء الواهن رأت دهشته، ولكنها لاحظت كذلك وجومه، فقالت في قلق:
"ألم يفد رأسك من الدواء الذي ابتعته؟"
فمد يده يتناول العصاه من حيث وضعها وقال:
"انه يخفف الألم.. هل وصل جو توا؟ كيف اهتدى لمكاني؟"
وأوضحت له تيسا الأمر، فسألها ان كان جو قد عرف بزواجهما. وترددت، اذا انكرت فسيتدفق سيل من الاسئلة لأن جو ولوسيندا كانا ينتميان لوسط اجتماعي واحد، وقد يرى بول غرابة في أن تختفي لوسيندا فجأة عن هذا الوسط ولا تثور بصددها أسئلة.
لذلك قالت تيسا متلعثمة:
"نعم، أخبره أبي."
وخفق قلبها. خدعة جديدة على جو أن يكون شديد الحذر. وسألها بول:
"كيف جاء الى هنا؟"
واذا أخبرته قال:
"أكان يقود السيارة؟"
وتولتها رغبة جامحة في أن تفتح مصاريع النوافذ، فقد أحست بأن الضوء الواهن يثقل أنفاسها وقالت:
"استأجر سيارة."
وقالت بصوت خافت، يشوبه القلق:
"أمغتبط انت بوجوده يا بول؟"

دق الأرض بعصاه حتى عرف موضع الباب:
"أنا.. نعم احسبني مغتبطا. أجل سيكون وجود ضيف نوعا من التغيير لنا."
وتنهدت تيسا بارتياح، وهي تفتح الباب دون أن تحدث صوتا، قال بول وهو يتجاوزها:
"لا أرغب في أن يكون خصامنا دائما، أتفهمين؟"
فأجابت:
"نعم يا بول."
وتوقف واستدار نصف دورة، وقال في سخرية:
"لن يكون عسيرا أن تقومي بدور الزوجة المحبة."
وأجابت بلطف:
"لن يكون عسيرا ابدا. ما علي سوى التصرف بأسلوب طبيعي."
قال:
"ما أشق ما تحاولين! في أية غرفة هو؟"
فأجابت:
"في غرفة الجلوس الصغيرة. وقد طلبت من تاكي أن يحضر بعض المرطبات."
وتركها بول وانصرف، وظلت لحظة جامدة بجوار الباب في غرفته الخاصة، كأنما كانت كلماته خنجرا نكأ جرحا وغاص فيه. ولكنها تعزت بأن لوسيندا كانت هي المقصودة.. ومنحتها هذه المعرفة قوة واحتمالا.

www.liilas.com/vb3
Sarah

٧ - الألم والأمل

كانت السماء بلون الكهرمان، انتشرت فيها نتف من الوان قوس القزح، ووشيت بلمسات من ذهب شفاف.. هكذا كان الغروب بكل بهائه. ووقفت تيسا على شرفة سطح الدار تتأمل قرص الشمس يهبط وراء البحر. وسيطرت سكينة الصمت على كل شيء، حتى النسيم الذي يهب من الجبال مضمخاً بعبير الصنوبر ليمتزج بأريج الروائح المنبعثة من الحديقة. ولفت نظر تيسا حركة.. كان بول بين أزهار الحديقة، يستوعب جمالها باللمس والشم. وفيما كانت تراقبه شاردة البال مهمومة رأته يقطف وردة فيلصقها بوجهه، ويقف ملياً غير متنبه لعيني زوجته وأشرقت على وجه تيسا ابتسامة حانية، اذ وضع بول عنق الوردة في فمه، واستأنف تجواله. ومن التصرفات المألوفة للرجال اليونانيين وضع زهرة في الفم، فهم يحبون كل شذى، وكانت تيسا ترى أن ثمة سذاجة ساحرة في أن يحمل رجل كبير زهرة على هذا النسق. ولكن ذلك ما كان ليتمشى مع شخصية بول الذي أصبحت القسوة وعدم المبالاة جزءاً من مظهره!

والتفتت فجأة وهي تبتسم اذ سمعت صوتاً هامساً خلفها يقول:

"ان زوجك هذا رجل غريب فكرت في اللحاق به الى الحديقة، ولكني أدركت أنه سيعتبر هذا تطفلا".

فقالت بلهجة ناعمة مغمغمة:

"أنه كثيرا ما يمشي في الحديقة في هذه الآونة. فعبق الزهور يشتد في الهواء العليل الطلق".

وقال جو وعيناه لا تبرحان الرجل في الحديقة:

"هل يحب أن يكون وحيدا هكذا ؟"

فأومأت برأسها ثم قالت بلهجة تنم عن استغراق في التفكير، وقد ندت عنها زفرة لم تتمالكها:

"أنا أيضا لا أتطفل على عزلته وأشعر مثلك بأنه لا يرحب بصحبة أحد".

قال مؤاسيا:

"لا تدعي هذا يجرح شعورك أكثر مما ينبغي. كثير من المكفوفين يجنحون الى الوحدة. يودون أن يبتعدوا تماما عن كل الادميين".

واكتفت تيسا بالايماء، بينما واصل جو كلامه:

"يداخلني أعجب شعور نحو بول.. شعور لا أدري كيف أوضحه".

كانت عيناها على زوجها، وقد وقف في ظل بعض الشجيرات، يعب شذاها. خطر لها أنه كان مرهف الحس ازاء العزلة وكان من اللازم أن يحظى بهذه اللحظات المتسمة بالسلام التام والوحدة. وقال جو:

"أوقن بأنه يناضل شيئا ما، مما يثير اضطرابا عظيما في نفسه".

فأدارت رأسها نحوه متسائلة:

"ما أغرب ما تقول ياجو، أي أضطراب؟ وما الذي يناضله".

وتردد طويلا، ثم قال:

"هل خطر لك يوما أنه ربما بدأ يشفى من حقده على

لوسيندا؟ فازاء رعايتك المتيمة وصبرك، وأسلوبك الفاتن في معاملته·· كان من أغرب الامور الا يكون لكل هذا تأثير عليه·"

وهمت بأن تعارضه· ولكنه قاطعها قائلا:

"لو صح هذا، وكان قد بدأ يقع في هوى لوسيندا من جديد، فهذا يفسر شعوري بأنه يتعرض في أعماقه لصراع· وهو خليق بأن يزدري نفسه، مما يجعله يناضل هذا الحب!"

وهزت تيسا رأسها قائلة:

"أنه لايزال يكره لوسيندا، لاشك في هذا· وصفحه عما فعلته به سيتطلب وقتا طويلا، طويلا·"

وعبس جو وقال:

"هناك لحظات يا تيسا، يكون فيها محبا·"

فبادرت بأسى:

"انه مجرد تمثيل أمامك·· وأحيانا يكون بول لطيفا هكذا ونحن معا، ولكن ليذيقني ما أفتقده فيثير حسرتي·· لقد قال بأنه يفعل ذلك ليعذبني!"

هتف جو وهو لايكاد يصدق قسوة بول المقرونة بسبق الاصرار:

"يا للوحشية الشيطانية، ان لوسيندا تستحق كل هذا، وما كنت لألومه اذ ينتقم منها، ومع ذلك فمن العسير أن أصدق أن بول اوتي هذه النزعة البربرية·"

فقالت وهي تعود لشرودها المتأمل:

"أوافقك، والواقع انني ما كنت أصدق انه قادر على كل هذه الانفعالات العنيفة· وفكرت فيما قاله عن احتمال وقوع بول مرة أخرى في هوى لوسيندا بسبب رعاية تيسا الحنون، ولكنها هزت رأسها مؤكدة أن كراهية بول للوسيندا باقية على أشدها فقال:

"انك ادرى طبعا· ومع ذلك فانني أشعر شعورا قويا

بهذا الصراع، لكن لعل له سببا آخر لا أعرفه!"

وبادر بتغيير الموضوع قائلا:

"بقي أسبوع واحد وأعود الى طاحون الأعمال لعلي أتمكن من زيارة أخرى، في عيد الميلاد·"

كانت الوان السماء تذوب في ضباب شفق الغروب والظلال تستطيل، ولن تلبث سكينة الليل أن تغشى قلب تيسا· كانت تنعم بهذه الفترات الوجيزة كل مساء، فتتوارى آمالها، ويضيع في قلبها شعور غريب بالتفاؤل كأنما كانت الاريكة الى جانبها تمدها بقوة متجددة لتواجه يوما مقبلا مليئا بالاجهاد النفسي وجراح المشاعر· واستدار جو قائلا:

"يا للموقع الذي اختاره بول للبيت، انه رائع!"

فقالت في حزن، وهي تطل الى أسفل:

"رائع ولكنه لا يملك رؤيته!"

* * *

وفجأة، تصلب كيانها، وشهقت:

"جو ثعبان يقترب من بول!"

وعادت للتو ليونة أطرافها، فاندفعت تهبط الدرجات· وتعثرت، ولكنها استطاعت أن تمسك بالسياج بمعجزة، وراحت تقفز الدرجات، كل اثنين معا، ولم تصرخ محذرة بول خشية ألا يدري ما هناك وقد يرتاع، كان الثعبان المميت ينتصب جامدا، مراقبا ثم انزلق على الارض مقتربا من بول على مهل وبول مكانه والوردة بين أسنانه، يستمتع مطمئنا بالنسيم المعطر، واعتصر قلبها خوف فظيع· وبلغت

الحديقة أخيرا، فتسللت والتقطت حجرا كبيرا، وزحفت مقتربة لئلا تخطىء الهدف، ثم القت الحجر بكل قوتها على الثعبان الذي كان يهم بالانقضاض على زوجها الأعمى!

واستدار بول هاتفا:

"ماذا؟"

فأصابت عصاه طرف تيسا وافلتت منها صرخة؛فقال بخشونة:

"ماذا تفعلين اذ تتسللين هنا؟"

ولكن تيسا لم تنتبه لجفائه، اذ كان الثعبان يتلوى وقد أصاب الحجر جسمه دون رأسه. وخيل اليها انه يتطلع الى بول في حقد أسود. وكادت تتهالك ارتياحا، اذ سمعت جو يقول:

"لا عليك، سأتولى أمره!"

ولم تنتظر ما يفعله بل تناولت ذراع زوجها وقادته الى البيت. ولم يقاوم، أو يحتج، أو ينبس ببنت شفة، بل أعطاها الوردة - حين استقر في غرفة الجلوس - طالبا وضعها في الماء. وشعرت بيدها ترتجف، ولكنه لم يخرج عن صمته. وقالت متلعثمة:

"الأريكة خلفك، هل أحضر لك شرابا؟"

فخرج عن الصمت قائلا:

"نعم، واحضري لنفسك كأسا، تناولي قليلا من الشراب."

أحضرت تيسا صينية عليها عدة قناني وكؤوس. وأقبل جو قائلا بأن الثعبان مات، فهتفت:

"الحمد لله!"

وقررت ألا تدع بول وحده في الحديقة مرة أخرى؛ فلا بد أن هناك ثعابين أخرى وقال بول في هدوء:

"لعل أحدكما يروي لي ما جرى!"

وفتح جو فمه ولكن تيسا هزت رأسها بشدة؛ وقالت:

"لا شيء يا عزيزي، الظلال أوهمتني بأن هناك ثعبانا!"

وصمتت فرفع جو حاجبيه وكأنه ينبهها الى عدم جدوى ما تحاول أن تختلقه بدلا من الحقيقة، اذ ذاك قالت، متصنعة الاستخفاف:

"كان هناك ثعبان يا بول، ولكنه صغير جدا. ولا أدري ما الذي اعتراني فأنا لست سريعة الفزع عامة!"

وتناوبت على وجه بول المشاعر، وهو يتناول الكأس من جو ويرفعها الى شفتيه. وأخذ عرق في صدغه ينتفض واختلج جانب من فمه، وقال:

"سمعتك تقول انك ستتولاه يا جو. فما حجمه؟"

فقالت:

"ليس كبيرا، ولكن جو قاطع قائلا:

"طوله ثلاثة أقدام." وكانت لوسيندا قد هاجمته قبل أن أهبط من سطح المنزل، فلم أفعل سوى أن أجهزت عليه."

وحدجته تيسا بنظرة غاضبة، فما جدوى اطلاع بول على الحقيقة؟ ان ذلك كفيل بأن يجعل خروجه الى الحديقة وحيدا مصدر اضطراب. وكانت تيسا حريصة على أن تكون دائما على مقربة منه، دون أن تحرمه من الشعور بالوحدة. وكانت ترى أن من القسوة أن يحرم من ساعة الخلوة هذه!

غمغم بول وهو يتناول كأسا أخرى:

"ثلاثة أقدام، وكانت لوسيندا قد هاجمته؟"

فبادرت قائلة:

"كلا يابول، بل رميته بحجر فحسب، لأرهبه."

فتساءل في فضول:

"من أية مسافة رميت الحجر؟"

فأسرع جو قائلا:

"كانت قريبة جداً يابول، وكان الثعبان يهم بأن ينقض فاضطرت لوسيندا للاقتراب جداً حتى لا يخطئه الحجر؟"

وأمسك لحظة، ثم أردف:

"أعتقد أنه كان تهورا من لوسيندا· كان من المحتمل أن يتحول الثعبان اليها·"

فعبست· ماذا كان جو يحاول أن يفعل؟"

وقالت باستخفاف:

"ما كان محتملا أن ينقض·· هل املأ كأسك يا عزيزي بول؟"

* * *

وفي ذلك المساء ذهبوا الى العشاء في أحد المطاعم الساحلية· وجلسوا الى مائدة في الخارج، تحت السماء المرصعة بالنجوم، وكان البعض يسبحون فأخذت تصفهم لبول، وتبين مبلغ استمتاعهم، ثم أردفت:

"أنهم يحظون بفترة مدهشة ونحن لم نمارس السباحة أبدا في الليل يا بول·" وعضت على شفتيها، ولكن بول أبتسم ايهاما لجو وقال:

"اذن فلنفعل يا عزيزتي· عسى أن نتمكن من ذلك قبل رحيل جو····"

وأخذوا يتناولون العشاء، وفرقة من موسيقي البزق تعزف· وكان بعض الناس يرقص على الانغام، في مرح وتحرر من الكلفة وقال بول وقد فرغوا من العشاء:

"لم لا ترقصين مع جو؟ خذها ياجو"

كانت في صوته نبرة جعلتهما يرميانه بنظرة سريعة· وبدا أن تغييراً طفيفاً طرأ عليه، تعذر ادراك كنهه، بجانب شيء مبهم أعاد لذاكرة تيسا اهتمامه الغريب بالرسالة التي كتبتها الى والدها، وتعليقاته التي ملأتها ذعرا طيلة يومين!

كان الرقص مبعث غبطة ولكنها لم تكن تتمالك- من آن لآخر- ارسال زفرة خفيفة والنظر الى بول وقد جلس وحيدا موليا وجهه شطر البحر· حتى اذا عادا الى مقعديهما، تساءل:

"كيف كان الرقص؟"

كان ابتهاجه واضحا، فلماذا التردد؟ وأجابت:

"كان ممتعا يا بول· الكل مرحون، ضاحكون، وقد طرحوا عنهم كل شيء·"

فقال:

"اجل، أخشى أن لديكم في الغرب موانع وشواغل لا تجعلكم تستخلصون خير ما في الحياة·"

وقال جو معلقا:

"الفارق هو أن القوم هنا لا يشغلون بالمال، انهم يمارسون عملهم في غير تعجل يجمعون بعض خشب الوقود من هنا وهناك ويسوقون ماعزهم وغنمهم عل التل في رضى وقناعة·"

وأمسك متفرسا وجه بول وسأله:

"ألست توافقني؟"

قال بول:

"الناس في كل الدنيا تعنى بالمال، وهنا - لاسيما هذه المنطقة بالذات - للمزارع عمل أساسي هو أن يعد بساتين الليمون الخاصة به، وبعد ذلك لا يبقى له عمل سوى ري الأشجار· لهذا يحق له أن يجلس، وأن يقضي أيامه في المقهى يلعب طاولة الزهر أو الورق ويجني من الليمون ألفين تقريبا في العام·"

وهتفت تيسا في دهشة:

"كل هذا المقدار؟! والفلاحون يبدون مدقعي الفقر·"

ورد بول:

"كل هذا المقدار حقا، فالليمون قد يبدو مهملا على الأرض هنا، ولكن تأملا سعره عندنا في انكلترا!"

فوثب جو على الفرصة متناسيا الليمون:

"عندنا؟ أما زلت تعتبر انكلترا وطنك؟"
غمغم بول في تأمل:
"بلى للعجب!."
وما كانت تيسا لتضن بشيء لتعرف أين كان اتجاه فكره؟ لعله كان يسترجع بحنين الاوقات الرائعة التي قضاها هناك مع لوسيندا عندما كانا متحابين والمستقبل ينبسط أمامهما كصورة مثالية للنعيم. كان هذا قبل أن ينقلب الحب الى كراهية قوية، طاغية بعثت شرا كامنا في نفسه، وشوهت قسماته المليحة الى معالم شيطانية؟ وما لبث بول أن قال بعد فترة:
"أظن أن الوقت حان لننصرف."

* * *

تولت تيسا قيادة السيارة في العودة وكان جو قد صرف السيارة المستأجرة. وكالعادة وضعت تيسا زهرة شذية بجوار زوجها، فأمسك بها وراح يتحسسها برفق وحنان، ويقربها الى وجهه، وفي حركته بساطة غريبة، وقد شرد ذهنه، فبات لا يعنى بغير السمات الجمالية للزهرة. أترى كانت هذه نتيجة لعماه؟ فطنت الى أن ذهنها توزع بين الطريق والرجل الجالس الى جوارها، فما لبثت أن استعادت بجهد السيطرة على القيادة. وعندما لاحت الفيلا البيضاء أخيرا، كان تاكي قد ترك أضواء الواجهة مضاءة، فهذا المكان كقصر سحري فوق الهضبة بين السفوح المكسوة بأشجار الصنوبر.
وقال بول بمجرد دخولهم:

"سآوي الى الفراش. طاب ليلك يا جو، طاب ليلك يا عزيزتي."
وتركته يمضي، ثم أومأت لجو معتذرة وتبعت زوجها. وعندما عادت كان وجهها شاحبا، واجما.. وقالت متهدجة:
"راسه.. أنه يضعه بين يديه. هذه الآلام تروعه. ترى أي تفسير لها؟"
فقال جو:
"أصبري ياتيسا! عقلك مثقل بما يكفيه، فلست بحاجة لقلق آخر كهذا!."
فهتفت:
"ولكن، لماذا ينبغي أن يعاني الآلام؟ انها قاسية، وأن كان لايتحدث عنها كثيرا."
وبدا كأنه لا يصغي اليها، وعلى وجهه تقطيب ينم عن التفكير، وفي عينيه وميض عجيب. ثم سألها:
"النظارة القاتمة التي يرتديها. هل يستعملها دائما؟"
فهزت رأسها وقالت:
"ما أستعملها الا حديثا ولقد ذهلت حين قال انه يريد شراءها. وكان يضعها من وقت لآخر، ولكنه الآن يبدو غير مرتاح بدونها!"
وارتجفت وهي تلاحظ أسارير جو، وقالت:
"أتظن يا جو أن لنوبات الصداع علاقة بعينيه؟"
وتفرس في عينيها، وسألها من ناحيته:
"اذا الامر كذالك، فهل تدركين معناه؟"
وبدت حائرة، وقالت:
"كلا."
وكانت النوافذ مفتوحة، وبدا جو منصرفا الى أصوات الليل المتصاعدة من أسفل السفوح، ونقيق الضفادع ونهيق حمار ربط الى شجرة على الطريق، وعاد يتكلم، وكأنه يتمتم لنفسه:

"لماذا يطلب النظارة فجأة، بعد أن يكون قد تركها طويلا؟ انني أعتقد أن لنوبات الصداع علاقة بعينيه!"

وانتبه الى تيسا متسائلا:

"هل خطر لك احتمال انه يبصر؟"

* * *

وارتجف كيانها، وصاحت:

"يبصر؟ كلا انه لايرى قطعا انني متأكدة!"

قال:

"أحسب أنه ما كان ينبغي أن أقول هذا. ولكن لعلي تنبهت الى أن الضوء يزعجه، واذا كان الضوء يضايقه"

ولم يتم، ولكن ما أمسكه كان واضحا. واشتد ارتجاف تيسا وتولاها خوف أعظم من خوفها من المستقبل، وقالت متلعثمة:

"الاطباء في انكلترا.. كلهم قالوا ألا أمل، أنني موقنة بأنه لن يبصر ثانية."

واندفعت خلال النافذة فراشة كبيرة، حلقت حول مركز الضوء، ملقية ظلالا خاطفة على الجدران والأرض. وقال جو:

"لعلهم كانوا مخطئين، هذا أمر كثير الحدوث. كانت حالة غريبة، كما أخبرتك، لم يكن أعمى حين نهض وانقض على اللهب. لقد نشأ عماه عن صدمة الاعتقاد بأن لوسيندا كانت تحترق في السيارة حتى الموت!"

وجلست تيسا مشدوهة، لا تجد كلاما، وقد هزها أن كل ما قاله جو بدا جادا. كانت هي الأخرى قد حارت ازاء طلب بول النظارة، ولاحظت أنه كان يحجب الشمس عن عينيه،

وتذكرت مظهر الصيدلي وبول يحدثه عن الصداع والدواء... اذ قال بول أنه أفاده قليلا، ولكنها توقن الآن أنه لم ينفعه البتة، وتطلعت الى جو شاخصة الوجه مذعورة، ثم قالت:

"لو استرد بصره لانتهى أمري! كافحت في أمل، وصليت بدون جدوى."

تململ جو في جلسته وقال:

"يحسن أن تتناولي شرابا قويا."

ونهض فسكب لها كأسا وقال:

"أظنني بدوري بحاجة الى كأس قد أكون مخطئا فيما قلت، ولكن الامر جدير بالتأمل."

فهتفت في جزع:

"كلا، لن ارتضي أن أفقده."

واستدار نحوها قائلا:

"أتحرمينه فرصة الابصار ثانية؟"

وبادرت قائلة:

"نعم... كلا."

ثم أمسكت وهزت رأسها عاجزة عن التفكير، وصاحت فجأة في لوعة:

"أنني لا أستطيع أن أفقده.. لا أستطيع!"

فقال:

"لماذا تجزمين أنك ستفقدينه؟ تذكري انكما متزوجان."

فقالت:

"سأفقده طبعا، فالتي تزوجها هي لوسيندا - في اعتقاده - وبوسعه الظفر بالطلاق دون عناء."

وتجاهل عبارتها الاخيرة، ليذكرها بأن بول قد أبغض لوسيندا؛ فقالت:

"ليس هذا مبررا لأن يحبني!"

"انك على صواب، لكنك كنت مفرطة الرعاية له، ولابد

أن يقدر هذا٠"

"أنه لن يحبني ابدا، كان في أنكلترا ينفر مني كل النفور، وقال أنني أطارده، فماذا يساوره اذا علم يوما انني استغليت عماه لكي٠٠ لكي استأثر به؟ سيعتبر هذا تصرفا مريبا، وله الحق في هذا٠"

وتجلت في عينيها نظرة قانطة، مرتاعة، وأردفت:

"لا أريد أن يرتد اليه بصره، لأنه سيصبح أشد غضبا ونقمة، اذ رأى نفسه مرتبطا بي أنا الفتاة التي كان يعافها، والتي قال انها دميمة!"

فهتف جو بحدة:

"ما قال هذا أبدا٠"

قالت:

"قال انني لولا عيناي لا أساوي شيئا٠"

وانبثقت الدموع من عينيها، فتركها جو تبكي، حتى اذا أخذ النشيج يهز كيانها، نهض فأحاطها بذراعيه وقال:

"اسمعي، ما من داع لهذا، فليس لدينا دليل على أن بول سيرى ثانية يوما ما، لننس الامر حاليا٠ وبمجرد عودتي الى الوطن، سأسأل في الامر، لي صديق يعرف اخصائيا في العيون٠"

صاحت تيسا في انفعال هستيري:

"كلا! لن أقبل أي تدخل في حياتنا، قلت لك انني لاأريد أن يبصر!"

فانتقل من جوارها، وساد الغرفة الصمت٠ وأخيرا رفعت تيسا المنديل عن عينيها، ونظرت اليه، فقال:

"بول صديقي يا تيسا، ويجب أن أسأل ذلك الأخصائي٠ لقد قام- بالعلاج والجراحة- بـ[illegible] وأخال أنني أتذكر، أجل كانت هناك حال شبيهة بحال بول: امرأة فقدت زوجها في حادث، وأدت الصدمة الى أن فقدت بصرها، اعـتـقـد أن

الامر لم يستدع جراحة، فقد استجابت للعلاج!"

فذكرته تيسا بالعلاج الذي تلقاه بول بعد الحادث٠ وتجاوز جو عن قولها، وقال بحزم:

"واجبي أن أساعد بول، اذا استطعت٠"

فصاحت:

"انه زوجي٠٠ وأنا صاحبة الرأي٠"

فقال مواسيا:

"اشربي كأسك٠ انك لا تدركين ما تقولين، وعندما يتسع الوقت لتفكري فيما سيكون لجراحة ناجحة٠٠ أو لعلاج - من تأثير على زوجك، فسوف تبدلين رأيك٠ انها حياته يا تيسا، ويجب أن تتاح له الفرصة ليحياها كاملة٠"

قالت في اصرار، ولكن بمزيد من الهدوء وضبط النفس:

"لن أساعد بأية حال في عرض بول على ذلك الرجل!"

"اتقضين على زوجك بأن يعيش عمره في ظلام؟"

"أجل٠٠ أن هذا لخير!"

فهتف:

"كيف يكون العمى خيرا لأي امريء ياتيسا بحق السماء؟"

فقالت في استماتة:

"انت قلت أننا لانملك دليلا على أنه سيبصر ثانية، فمن القسوة اصطحابه الى ذلك الرجل، واحياء آماله٠ كلا لن اسمح بايذاء مشاعره!"

وشعرت بارتياح، ولكن للحظة واحدة، اذ أخذ ينمو في جوفها هم مروع، أدركت بغريزتها أنه خليق بأن يرديها في شقاء ويأس يفوقان ما قضى به بول عليها!

فقال جو:

"صحيح أننا لا نملك دليلا يا تيسا، وصحيح أن آمال بول ستتجدد، وقد تخبو سريعا، ومع ذلك، فعلينا أن نتيح له فرصة٠ هذا واجبنا يا تيسا٠"

قالت:

"واجبي الأول هو أن أحمي زوجي من الأذى. ولست أرضى باذكاء آماله ثم اطفائها. لقد عولج وأخفق العلاج، واني لموقنة بأنه سيخفق ثانية!"

* * *

وجلست طويلا – بعد انصراف جو الى النوم – تحملق في اتجاه البحر البعيد. وكانت حمرة الشفق تدب في السماء مؤذنة بالفجر، حتى أوت أخيرا الى فراشها. وكان بول قد لاذ بالغرفة الأخرى فأطلت عليه خلال الباب، وعلى الضوء الخافت الذي تسرب من خلال مصاريع النوافذ، لاحظت أنه متململ في نومه، اذ كانت انفاسه ثقيلة ومضطربة. وبهدوء انسحبت وقلبها وعقلها في دوامة: أمن الممكن أن يبصر ثانية؟ لقد سمعت أن الراحة والعلاج المتخصص قد يؤديان لارجاع البصر المفقود أثر صدمة. وهمست لنفسها:

"لن اطلع بول على هذا!"

وتأملت وجهها في المرآة، والانف الافطس، وعظام الخدين والقسمات التي لم تصفها الطبيعة كما صاغت ملامح أختها. ولم تر عينيها الجميلتين، ولا الحنان والشفقة الفياضين فيهما ولا الاستدارة الجميلة لشفتيها، وقالت:

"كلا، لن اسمح للاخصائي بمجرد فحصه. لن أخسر زوجي!"

وأخذ الصراع بين ضميرها وقلبها يعصف بها. انه ملكي فلماذا أجازف بأن أفقده؟ ولماذ قدر لجو أن يأتي فيعكر علينا حياتنا؟ الواجب؟ انه لايمت اليه بقربى، مجرد صديق.

فبأي حق يتحدث عن الواجب؟ انني أنا – زوجة بول – التي سوف تبت وتقرر:

أجل، وهي وحدها صاحبة الحق في القرار!

وأخذت تذرع الغرفة، ثم التفتت اذ دخل عليها بول في ثياب النوم وشعره الاسود يتهدل في فوضى جميلة. وقال وهو يسير نحوها، مستعينا بعصاه:

"انت قلقة.. سمعتك طيلة الساعة الماضية لاتهدأين. هل تحسين بمرض؟"

فبادرت قائلة:

"كلا. لم استطع النوم. لعله تأثير الشراب. وأحاطها بذراعيه. أين ذهب العناق البدائي العنيف الذي كان يؤلمها به في الماضي؟

فأدركت، وتطلعت لوجهه بعينيها الجميلتين، وقالت:

"هل عدت تعبث بي، أتوسل اليك الا تفعل. الآن!"

قال بايجاز ولهجة باردة:

"لم لا؟ سأعبث بك عندما يحلو لي. وانصاعت في استجداء، وهي تقول:

"انني متعبة جداً يا بول!"

لمس عنقها، ثم ذقنها وتحركت أصابعه خفيفة على قسماتها، من جبينها حتى فمها. وكان فمه مغلقا بشدة، وقد بدت لمسة من اللون الرمادي حول ركنيه. ولمست أصابعه أنفها، الانف الأفطس الصغير، الذي لم يكن يشبه أنف لوسيندا. وحبست تيسا أنفاسها، لقد فعل بول هذا مرات كثيرة من قبل، ولكن بطريقة شبه عابرة، وكأنه غير معنى أو مشوق. أما الآن فقد بد أنه شديد الاهتمام بما كان يفعل!

وندت عنه أخيرا زفرة عميقة، لم تنم لها عن شيء. وظل فمه مطبقا ولاحت عليه خشونة مختلفة عن أية خشونة عهدتها منه من قبل. ودفعها عنه بجفاء. وقال

"أنت متعبة أليس كذلك؟"

كان صوته خافتا حتى كادت لاتسمعه، ومع ذلك شابته رنة أرسلت قشعريرة في عمودها الفقري.

وعاد يقول:

"اذاً، فارجعي الى فراشك، وحاولي أن تنامي."

وتوقف برهة، وكأنما استولى عليه شيء من التردد، ثم غادرها عائدا الى غرفته.

وسمعت صوت قفل بابه يتردد في سكون البيت، فاذا بها تحس بوجود حاجز - أكبر من الباب - بينها وبينه.

وخامرها الشعور العاجز اليائس بأنها مطرودة من حياته.. الى الابد!

٨ - ليلة التحولات

لم تكن الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف صباحاً، ولكن تيسا كانت مستيقظة، تقف في نافذة غرفة النوم، تسرح البصر نحو الجبال، كان ثمة ضباب داكن يلف القمم، والمنظر معتماً يتسق مع مزاجها. وظلت فترة طويلة تحدق في طبيعة غير واضحة المعالم. وما لبثت الشمس ان أشرقت، ولكنها كانت تفتقر الى البهاء الذهبي المعهود، وكأنما قرصها اللؤلؤي أخذ يرقى، مرسلا أشعة مائلة من ضوء باهت، خلال اغصان الشجر. وكان مقدرا للشمس أن تشرق بعد قليل، وتسترد لونها الذهبي، وتغمر الطبيعة كلها بضوء متألق. ولكنها في اللحظات الراهنة كانت تعكس الكآبة الباردة التي احتلت أعماق تيسا!

تحولت تيسا عن النافذة وكأنها تعاف أن تشهد معجزة الاشراق. وتناولت الروب دي شامبر عن السرير فارتدته وخرجت الى الردهة. كان باب غرفة بول مشقوقا، وسمعت تنفسه المنتظم، فتوقفت لحظة تنصت لصوت في نفسها يسألها "لماذا لجأ الى النوم وحيدا؟" لكم حاولت منذ حادث الثعبان أن تتذكر ما يمدها بمبرر للتغيير الذي طرأ عليه. كانت من قبل امرأته - كما يطلق القبارصة على الزوجة -

فكان يأخذ ما يشتهي ومع أنه ما كان يمنحها حبا ولا حنانا مقابل ذلك، فأنها كانت تشعر بأنها جد قريبة منه، لصيقة به، اذ أنها كانت تمنحه – من ناحيتها – الكثير وكانت تودع استجابتها له كل ما تحس به من حب له، وكل ما يفيض به قلبها من وجد. أجل، كانت تشعر بالقرب منه، وكأن شعورها هذا يبقي أملها حيا. أما الآن..؟ومضت في الردهة الى الحمام لتغتسل، وعقلها يفكر في التغيير الذي أعترى زوجها ولا تفسير له. ولقد أظهر فتورا نحو صديقه جو خلال الأيام الأخيرة من اقامته، فكان هذا أيضا أمرا لامبرر له، وكانت تيسا تعجز عن الاجابة اذا ما سألها جو عن سبب ذلك. وقد أجابت مرة وهي حائرة:

"كان مغتبطا بأن التقي بك من جديد، وأوقن بأنه استمتع بصحبتك حتى الآونة الأخيرة."

فقال جو في تسامح:

"لعل حالته هي السبب. من المفهوم أنه سيكون عرضة لتقلبات المزاج."

* * *

ازداد بول بعدا عن تيسا، منذ اللحظة التي ودع فيها صديقه في المطار، فانقضى أسبوعان دون أن يقول لها كلمة رقيقة واحدة. وفضلا عن هذا أصبح نكدا، اذا جلس فهو صامت متجهم، والا فهو في مخدعه مستلقيا على السرير، والمصاريع الخشبية للنوافذ مغلقة، وظل مع الأيام متباعدا حتى عزمت أكثر من مرة أن تثير الموضوع معه،

ولكن شجاعتها كانت تخونها دائما. كان من الواضح أنه ما كان راغبا، وشعرت بأنه خليق بأن يجيبها برد جارح، لو أنها سألته عن سبب فقدانه الاهتمام بها... كزوجة!

والى تباعده، بدا أن بغضاء جديدة استولت عليه، فأخذت آمال تيسا تتداعى، حتى كاد اليأس يمتلكها، ولكنها راحت تتشبث باستماتة؛ فبالرغم من تباعده، شاركها اهتمامها في مناسبتين؛ متخلفا عن مسلكه الخشن اللاذع:

كانت المرة الاولى حين ذهبا الى جبل ترودوس اذ اقترحت هي الرحلة فوافق، مما ادهشها وأرضاها. وبدا بول مرهف الحس ازاء الهواء النقي الصافي، الذي خدر اعصابهما معا، فقال وهما يتناولان غداءهما تحت شجرة صنوبر:

"هذا مكان بديع، ما مدى ارتفاعنا؟"

وتأملت كتاب دليل السياحة، ثم قالت:

"لسنا بعيدين عن قمة جبل الاولمب، وارتفاعه يتجاوز ستة آلاف قدم."

فقال وهو يتناول كوبا من يدها، ويشرب:

"لايبدو أن أيا من الناس هنا، فما سمعت أصواتا غير صوتينا."

وجالت عيناها في السفوح وقالت:

"اننا وحيدان تماما، هناك حطاب عجوز على مسافة، ولكن لايوجد سياح على الاطلاق!"

كان الوقت مبكرا، فقد انطلقا بالسيارة في الساعة الخامسة. وكانت الرحلة منعشة، وهما يرقبان نحو اللب البركاني للهضبة الجنوبية، وتألق وجه تيسا حبورا، وزوجها يطري قيادتها بلهجة بدت لها غريبة:

"انك تقودين بحنكة خبيرة، حتى ليخال أي امرىء انك تعودت مثل هذه الطرق. ولست أدري لماذا ترددت عندما اقترحت شراء السيارة؟"

www.liilas.com/vb3
Sarah

فقالت:
"الطريق المفضية الى دارنا كانت تخيفني".
ثم أردفت بتواضع:
"أي انسان يلم بقيادة السيارة يجد هذه الطريق بسيطة، فهي بلا وعورة الا حين نجتاز المنحنيات المفضية الى القرى".
واذ فرغا من الغداء، أخذا يتجولان بين الاشجار. وتمتمت تيسا بصوتها العذب الجميل:
"يا لعبير الصنوبر! أليس عجيبا؟"
فلمس بول ظهر راحتها بأصابعه، وقال وهو شارد في افكاره:
"بلى!"
كأنما كانت أصابعه تستطلع شيئا، فأحست تيسا بعدم ارتياح عجيب. ولكنها- مع ذلك- شعرت بأن بول لم يكن واعيا لما يفعل. وعاد يقول بعد فترة:
"وورود الصخور أيضا! لابد أن هناك كميات كبيرة منها".
فقالت:
"انها في كل مكان، ولكنها لن تلبث أن تختفي عما قريب".
قال:
"شذاها يختلف عن كل ما عرفت. انه شذى الورد ولكنه يبدو وكأنه يخبرك بأنك فوق الجبال".
ولم تعقب تيسا وواصلا تجوالهما ويداهما متشابكتان، تقريبا، ومع ذلك فما أوسع ابتعادهما، انهما يعجبان بأشياء معينة مشتركة، وينتعشان بهواء الجبل البارد العليل، وبسكينة العزلة وطمأنينتها وتساءلت تيسا:
"هل تود الصعود الى قمة جبل الأولمب؟ الطريق جيدة".
فهتف:
"طبعا فلا بد أننا سنحظى بمنظر رائع".
انبعثت الكلمات بتلقائية طبيعية. وشد شيء ما أوتار

قلب تيسا واتخذا طريقهما الى القمة وتيسا تعيش- مرة أخرى - في المحنة الرهيبة التي خبرتها ليلة ألمح جو الى أن بول ربما يستطيع استعادة بصره، وهمست لنفسها:
"لقد اتخذت قراري، لن أفقده!"
ولكنها برغم ما حاولت لم تستطع الافلات من وخز ضميرها الملح. لقد قال لها جو قبل أن يصطحباه الى المطار بساعة في حزم، ان عليها أن تتيح لبول مقابلة ذلك الاخصائي مهما تكن النتيجة، فلما تشبثت بعنادها قال وهو يوشك أن يفقد زمامه:
"هذا مسلك أناني وضيع ياتيسا! مهما تقولين فانني سأتصل بالرجل شخصيا، وسأعمل على أن يفحص بول، وعليك أن تعودي نفسك على هذا!"
"لست أرى كيف تستطيع تدبير الأمر بدون معونة مني؟"
"بل ستعاونين، عندما يحين الوقت!"
قالت وقد اشتد شحوبها، واضطرب عقلها وقلبها:
"لن أعاونك.. لن أدع بول يعرف شيئا عنه!"
ومن العجب أن غضبه تبخر، وعاد صوته لطيفا مشفقا، وهو يقول:
"ستعيدين التفكير في الأمر، انني موقن من هذا، لا شيء الا لأنك... تيسا!"
وتطلعت اليه والدموع تترقرق في عينيها، وقالت وهي ترتجف:
"انه رجلي.. ملكي! لن أدعه يذهب. انني لقادرة على أن أبصر له، وسأفعل على الدوام!"
فعاد يقول بذلك الصوت الرقيق:
"ولكنك لست سعيدة يا تيسا!"
"أنا هكذا أسعد مني لو لم أحظ به على الاطلاق".
وبرغم اطمئنانه، وتغيير لهجته، عاد - في النهاية -

يؤكد عزمه على الاتصال بالطبيب، قائلا انه سيكتب اليها فور ذلك. وظلت صامتة، عنيدة. ولم يعودا الى هذا الموضوع. فهل ترى سيتصل جو بالطبيب؟ ما من شيء يمكن أن يفعله بدون تعاونها، وهي لن تسمح به!

وردها الى ما يحيط بها صوت بول:

"لابد أننا أشرفنا على القمة."

فقالت:

"نعم، والمنظر من أروع المناظر كما قلت يا بول"

واذ سألها أن تصفه له، اخذت تقول:

"انها أشبه بخريطة بارزة. الى الشمال سلسلة جبالنا - جبال كيرينيا - وتبدو رؤوسها من هنا مدببة كما تبدو قاتمة، لأن المسافة تجعل السماء فوقها بلون الارجوان، كلا بل البنفسج، ولكنه باهت، اذا أدركت ما أعني. والى الجنوب تبدو قمم جبال ترودوس كالحراب الشديدة الميل، انك لتستطيع التكهن يا بول، بأن الثلوج اذ ذابت، تحولت الى سيول مثيرة، لأن التلال كثيرة الحفر والأغوار بفعل سيول سابقة، هل تكسو ترودوس ثلوج كثيرة؟"

قال:

"نعم، عادة وأن لم تهطل الثلوج كثيرا في هذا العام. على أن الناس يأتون هنا لممارسة رياضات الشتاء."

ومضت تصف السهول المكسوة بشجر الخروب، التي كانت تنبسط كالمروحة من النتوءات الخفيفة في السفوح، وتمتد على مدى البصر. وكانت تيسا تشعر بأنها موضع اهتمام لدى زوجها، وقد اختفت اللامبالاة، السخرية والازدراء. ولم تعد ظلال الكراهية تتجمع لتؤلف حاجزا بينهما، كان يوم انسجام، أذكى روح تيسا فتمنت لو ظلا كذلك.

أما المناسبة الثانية، فكانت في حفلة زفاف بالقرية، الزفاف الذي لم يقدر لجو أن يحضره. وقد سبقت

الزفاف طقوس الاعداد فاذا العروس - تتهيأ - وكل رفيقاتها يحطن بها - في أبهى الثياب والزينة، بينما العريس يقص شعره لآخر مرة كأعزب، يحيط به عشرات من أصدقائه، يتفكهون ويضحكون، كل ذلك في مرح وعدم تكلف، وأخذ الرجال يرقصون حول حشية زينتها الفتيات بأشرطة في أركانها، وقذف بطفل ذكر الى الحشية، يتواثب عليها، فألا لخصوبة الزواج، كما كانت النقود تلقى اليها تيمنا، حتى لايعرف العروسان الفقر أو الحرمان، وكان المرح أكثر انطلاقا بعد القران، والعروسان يغادران الكنيسة فيخطران في الطريق، والقرية بأكملها تتبعهما. قالت تيسا لبول، وهما ينطلقان بالسيارة الى دارهما:

"هل استمتعت بالحفلة؟"

فقال:

"نعم" ولم يزد.

وفي اليوم التالي عاد لوجومه واكتئابه وعزلته، فجلس طيلة الضحى والعصر في الحديقة، في سروال قصير، وتعلين خفيفين وكأنما كان جسده الأسمر في مناعة من حرارة الشمس. لكم بدا موفور الصحة، وراحت تيسا تتأمله من الشرفة - دون أن يفطن - متربصة لاي خطر قد يتهدده من الثعابين، برغم أنها كانت نادرة في تلك المنطقة.

* * *

وفي الايام القلائل التالية لازم بول غرفته مستلقيا على فراشه، ومصاريع النوافذ الخشبية مغلقة، فلم يكن

يغادرها الا في أوقات الوجبات، أو بعد الغروب، والهواء عليل، ولقد دخلت عليه تيسا حجرته مرة، مجازفة بالتعرض لضيقه وسألته:

"هل تشتد بك آلام رأسك؟"

فصرخ فيها:

"اخرجي.. واغلقي الباب!"

وأغلقت الباب، فحجبت النور، ورجعت بخفة لتقف الى جوار سريره، تطل عليه، وفي أعماقها معركة محتدمة. وكانت تحاول تهدئة ضميرها بأن جو قد يكون مخطئاً، ولا احتمال هناك لأمكان ارتداد البصر الى بول فمن القسوة اذكاء آماله اذا كانت لن تلبث أن تهوي مهشمة:

واستباحت لنفسها أن تجلس على حافة السرير وهي تقول:

"أرجوك يابول.. دعني أمكث معك. انك تستلقي مستيقظا، وبوسعي أن اتحدث اليك."

فصاح:

"لا أريد حديثا، لاسيما منك بالذات!"

وأجفلت لماذا هذا التخصيص؟ ولكنها تمالكت نفسها وهمست:

"لا أطيق أن أراك هكذا.. أريد أن أكون معك، فلا تطردني انني سأجلس ساكنة!"

ولم ينبس ببنت شفة فترة حتى اذا تغلب على جفوته، سألها:

"ما جدوى هذا لك؟"

وبعثت أملها لهجته فقالت برفق:

"لا أريد سوى أن أكون.. أن أكون بقربك.."

وتمنت لو كان بوسعها أن تخفف عنه، وبيد مترددة متهيبة مست جبينه، ولم يزح اليد، لدهشتها، بل بدا كأنه ارتاح اليها. وتمتم:

"لا تريدين سوى أن تكوني بقربي!"

وغاب في أفكاره، أكانت خدعة من الضوء المتسلسل خلال مصاريع النوافذ، أم أن شفتيه اكتسبتا رقة حقا؟

جلست ساكنة، ساكنة، تتأمله وتتذكر ما استولى عليها من شعور بأن عداء جديدا خامره نحوها، فأثار صراعا في نفسه، واستعادت ما قاله جو بهذا الصدد. وما لبثت أن لاحظت أن جسم بول اختلج فجأة. وكأنما استرخت كل عضلة فيه، وتخلص من كل توتر وألم كانا يعتريانه، ورفع يدا تحسست الهواء حتى استقرت على يدها. وبدا صوته لطيفا وهو يقول:

"أتجلسين هنا، في الظلام.. لمجرد أن تكوني بقربي؟"

فقالت بصوت متهدج:

"أوثر هنا على أي مكان آخر.. لا أريد ألا أن أكون حيث تكون."

وتحسست أصابعه يدها وقد ارتسمت على شفتيه نصف ابتسامة، وما كان من سبيل - في هذه المرة - لاغفال الرقة التي سرت الى وجهه. وقال:

"ألا تشتكين أبدا، مهما كانت معاملتي اياك؟ انك لا تتلفظين بكلمة شكوى ابدا."

وحملقت فيه لحظة، كانت حاله هذه جديدة عليها، ومالبثت أن قالت:

"بأي حق اشكو؟ انني جئت اليك بمحض ارادتي!"

"أكنت تظنين انك ستحظين بحبي؟"

وغص حلقها، فقاومت لتقول:

"كنت أظنني سأحظى بحبك."

فسحب يده، ولكنها ظلت تشعر بملمسها ورفعت يدها عن جبينه. وسألها:

"هلا أخبرتني ما الذي جعلك متأكدة من انك ستحظين بحبي؟"

"أنت قلت – عندما افترقنا – انك مستعد لتقبل عودتي.. وما خطر لي أنك كنت تأمل في الانتقام!"

فتساءل:

"ولو خطر لك؟"

وافلتت بضع شعاعات من الشمس من خلال النوافذ فوقعت على وجهه، وتوقعت أن يحجب عينيه، ولكنه لم يبد ادنى عدم ارتياح، وتأكدت تيسا كذلك أن آلام رأسه لم تكن شديدة القسوة، لأن اختلاجات الألم تلاشت من وجهه، وعاد يقول:

"أكنت تجيئين الي لو أن ذلك خطر لك؟"

تروت مفكرة، ثم هزت رأسها في حيرة، وقالت:

"لست أدري يا بول.. بل كنت أجيء يا بول فيما أظن، لانني كنت – ولا أزال – آمل أن تصفح عني يوما، من جراء..."

وبحثت يده عن وجهها، وضغطت اصابعه شفتيها. يا للحركة المدهشة! لقد تعمد الا يدعها تتم ما كانت تهم بأن تقول، كان من قبل يستمرئ اساها وهوانها، ويستعذب جهارا انغماسها في الشعور بذنبها!

وبارحت أصابعه شفتيها، وراحت تتحسس كل خط في وجهها، وتنحدر الى عنقها فكتفيها ثم تمس في رفق جبينها، ومتتبعة مفرق شعرها. وبددت الصمت زفرة مرتجفة ندت عنه، كانت لحظة مثقلة بالتوتر، وبول في نوع من الشرود، وتيسا تترقب في لهفة وقلق، وما لبث أن قال، وقد عادت يده الى جانبه:

"أشعر للتو بأنني أحسن حالا، وقد توقف ألم رأسي."

ثم استوى جالسا وقال:

"أتعرفين يا عزيزتي؟ أشعر برغبة في الخروج الى أي مكان."

فاقترحت متحمسة أن ينطلقا بالسيارة في جولة.

* * *

وغادر الفراش وعلى شفتيه ابتسامة، وعلى وجهه سماحة ما رأتها من قبل، محت كل أثر للخشونة والقسوة عن القسمات المليحة التي اجتذبتها منذ لقائهما الأول، وطوقها بذراعيه، وضمها في حنان جديد غريب. وكأنما كان يستجيب لدافع كان في استحياء منه، بيد أن تيسا كانت قانعة، شاكرة لكل ما يجود به.

وما هي الا ساعة حتى انطلقا بالسيارة مصطحبين غداءهما. ما شعرت تيسا ابدا بمثل هذه السعادة منذ الفترة السعيدة التي كانت تجهل فيها نية زوجها، فقد كان مفرط الحنان، متحررا من الألم، وسألته وقد اجتازا وسط كيرينيا في اتجاه البحر:

"أين نذهب؟ أنمضي هكذا ونتأمل المناظر؟"

زلة نادرة ما كانت ترتكبها، فحبست أنفاسها وكم ارتاحت اذ رأته يبتسم قائلا:

"هذه فكرة طيبة، فقد نصادف شيئا يبعث الابتهاج."

أومضت عينا تيسا فما خطر لها أن تكون هذه هي النتيجة عندما دخلت غرفته على وجل، تتوسل اليه أن يسمح لها بالبقاء بجواره. لقد بدا خلال حديثهما – وهو يستلقي في الفراش – انه يعاني من لامبالاة عقلية وانطواء مهموم، تسلطا عليه منذ حادث الثعبان، وكأنها فرضت رؤية ايحائية ذاتها عليه. ولم تتمالك تيسا أن تسائل نفسها: "أترى حبها قد نفذ أخيرا خلال نقطة ضعف في تكوينه، وما لبثت أن قالت:

"أننا نجتاز الآن مورفو وأشجار البرتقال باسقة ولكن الثمار غابت."

ورمته بنظرة سريعة، فاذا ملامحه مرتاحة مسترخية وأرضاها انه كان يضارعها استمتاعا بالرحلة، وعادت تقول:

"الخليج جميل يا بول، والبحر بلون السماء، وهناك ضباب رقيق، شفاف، مهتز، ويبدو كأنه يطفو فوق البحر، أظن

"أن اليوم سيكون حاراً."
"أذا فلنذهب الى البحر. هل أحضرت لوازم السباحة؟"
"انها في السيارة دائما. أتود أن أختار الآن بقعة؟"
"فيما بعد، عندما يشتد الحر فعلا."

وواصلا التجوال في السيارة وسألته ايذهبان الى اطلال قصر فوني فواقق؛ حتى اذا بلغا القصر، لم يجدا أحدا هناك. وشعرت تيسا كأنهما أوتيا عالما خاصا بهما، وأخذت تصف له المعالم وقالت:

"أننا على قمة تل، الموقع ممتاز فالبحر تحتنا، وجبال ترودوس في الناحية الاخرى."

وبعد طوافهما وجدت تيسا بقعة مناسبة للغداء، فبسطت سجادة على الارض، وكان الصمت الشامل يلف المكان فلا حركة، ولا ضجة، حتى وجدت تيسا نفسها تتكلم همسا:

"الشطائر يابول.. سأضعها هنا أمامك، أتتناول شراب الليمون، أوشراباً ساخنا؟"
"أي شراب ساخن لدينا؟"
"شاي وقهوة.."

وفضل القهوة ثم فطن الى لهجتها، فقال في عجب:

"لماذا تهمسين؟"

وترددت في السكون ضحكة صغيرة رنانة، وقالت:

"رهبة المكان."

ضحك بول فحملقت مشدوهة، هل سمعته يوما يضحك هكذا؟ بل ان كلا منهما لم يضحك منذ اطلعها بول على غايته من الزواج منها، وظلت تحملق وهي تتبين جاذبيته كرجل، فسألها:

"فيم تفكرين؟"

ثم اردف شبه آمر:

"أخبريني!"

ولأول مرة أحست بسيادته غير ممتزجة بكراهية، فقالت:

"لاشيء."

قال:

"انك بعزوفك عن اطلاعي على افكارك تثيرين فضولي."

لم تجد مهربا، فقالت:

"قد يفسد ما سأقول يومنا."

ولكنه الح، فقالت:

"خطر لي أن كلامنا لم يضحكك كثيرا."

وانتظرت موجسة، فأدهشها الا يصدر ردا لاذعا، ولا جوابا خشنا يذكرها بأنه ما من شيء يستحق الضحك. بل أنه استدار نحوها فأذهلها أن ترى امارات ندم تغشى وجهه الوسيم. وقال في لهجة رقيقة:

"لم نضحك كثيراً.. لعلنا نبدأ الان في الضحك."

وغمرها انفعال عاطفي أعجزها عن الكلام.

* * *

وفي طريق العودة، وجدت خليجا جميلا فسيحا، ثم استلقيا تحت الشمس، لكنهما لم يتبادلا سوى كلمات قليلة، خلال عودتهما في الاصيل، استولى عليهما سكون غريب أخذت تيسا تحاول تبديده بوصف بعض المناظر الطبيعية التي حفت بالطريق، فقال بول:

"حديثك عن هذا الطريق يجعلني أخاله من أجمل طرق الجزيرة!"

وما لبثت أن جنحت بالسيارة الى جانب، وأوقفتها قائلة:

"أشجار الرمان تمتد على طول هذه المنطقة، وتبدو كأنها ضباب بديع الحمرة، سأحضر لك زهرة".

واقتطفت مع الزهر وردة برية، أودعتها الطبيعة عبيرا فواحا ملأ السيارة وتلمس بول زهرة الرمان ثم تناول الوردة فقربها الى وجهه، وبعث التغير الذي طرأ على ملامحه شعورا غريبا لدى تيسا تولتها رغبة طاغية في أن ترى ماوراء نظارته القاتمة التي أصبح يرتديها باستمرار!

* * *

كان اليوم مثاليا ولكن تيسا صدمت حين ذكر بول - بمجرد وصولهما الى البيت - انه اعتزم أن يأوى لفراشه. وذهب الى غرفته تاركا أياها وفي نفسها شعور بأنه عاد يعاني من الصراع الداخلي!

واستلقت على سريرها مستيقظة ثم جلست محاولة أن تقرأ، لكنها لم تفقه شيئا - ترى أكان بول نائما؟ وقادها دافع طاغ للخروج الى الردهة، وأوحت اليها غريزتها بأنه هو الآخر كان مستيقظا فوقفت عند بابه في هدوء، وأرهفت سمعها، لم يكن ثمة صوت ما. ودفعت الباب بهدوء، كان بول يقف أمام النافذة المفتوحة، لا يكسوه سوى سروال البيجاما، وكأنه تمثال على خلفية من سحب يتخللها القمر ورأسه مرفوع في شمم وكتفاه مستقيمتان في اعتداد، وهواء الليل العليل يداعب وجهه، وينثر شعره الاسود في فوضى...

ظلت تيسا طويلا تتأمل زوجها الساكن. فجأة التفت، فأدركت أنه أحس بوجودها، وأسرعت تهتف باسمه، لكنه

لم يرد، لبرهة، ثم أجاب في شيء من الحدة والضيق:

"ماذا تفعلين هنا؟ وجرحت لهجته مشاعرها، ولكنها قالت:

"لم يواتني النوم".

ثم سارت الى جواره، وقالت:

"أنت ايضا لم تستطع أن تنام".

فتساءل وقد شعرت في لهجته بشيء من العجرفة:

"وبعد؟"

قالت:

"هل أستطيع البقاء معك فترة وجيزة؟"

تصلب جسمه، فعبست: هل عاوده الصراع؟ كان يناضل ويتمزق في نضاله، فقالت هامسة:

"قد يحسن أن أنصرف، انني آسفة اذ ضايقتك يابول".

وكانت قد بلغت الباب حين تكلم، وبدا لها أنه كان ينتزع الكلمات:

"كلا؛ تعالي".

ورجعت ببطء، ولكن في لهفة سارت اليه وقبل أن يفطنا، كانت بين ذراعيه، يضمها في رفق وحنان، متمتماً:

"يا فتاتي الصغيرة!"

وتسرب الصراع في زفرة عميقة مرتجفة.

وغمغمت في خفوت، بعد فترة طويلة، ونور الفجر يتسلل:

"بول أترى اهذا جزء من العقاب؟ أتراك تعبث بي من جديد؟"

فاشتد تماسك ذراعيه حولها، حتى أحست بوجيب قلبه فوق قلبها وتمتم في رفق ولين.

"ليس هذا من العقاب.. لن أعبث بك ثانية".

٩ - صندوق البريد

كان للدفء والوئام اللذين خيما على علاقتهما - من ذلك اليوم - آثارها عليهما فاذا تيسا تتفتح مزدهرة ازدهارها في الاسابيع الثلاثة الاولى لزواجها، دون أن تحفل بأن ما أولاها زوجها من حب وحنان انما كانا في الواقع موجهين لأختها· فهي حين بدأت هذا الانتحال لشخصيتها - أول مرة - كانت قد هيأت نفسها لتقبل ما ينالها شاكرة ممتنة· أما بول فقد بدا - اذ بسط أخيرا عفوه على لوسيندا - كما لو كان قد ازاح عنه عبئا ثقيلا· وانعكس هذا - أول ما انعكس - على اختفاء آلام رأسه· على أنها لم تلبث أن عاودته ثانية، بمجرد أن أقنعت تيسا نفسها بأن تلك الآلام انما كانت منبعثة عن الارهاق العقلي والنفسي بدون أن تكون ذات صلة بعينيه·

وكان راقدا حين جاءت اليه بعد الغداء - ذات يوم - وسألته:

"هل الآلام شديدة يا حبيبي؟"

قال:

"أجل يا عزيزتي·"

فقالت:

"يبدو أن الصيدلي غير قادر على اعطائك دواء ناجحا·"

فمد يده سعيا الى يدها قائلا:

"بذل قصاري جهده·"

ورفع يدها الى صدغه قائلا:

"هكذا أفضل·"

وتنهد، فغص حلق تيسا، كان جو قد نفذ فكرته، واتصل بالطبيب الذي أبدى اهتماما بالغا، وأعرب عن رغبته في رؤية بول· وكتب اليها جو، بعد رحيله بعشرة أيام:

"انني واثق انك أعدت التفكير· واذا أخبرتني بموعد تستطيعين فيه احضار بول الى لندن، فاني سأدبر لقاءه بالطبيب، ويدعى جون ريد، وهو مهتم الى درجة أنه وعد بأن يفحص بول في أي وقت· اخبرته كل شيء عن الحادث، وما أعقبه من فقدان بول البصر· ومن الطبيعي أنه كان متحفظا في تعليقاته؛ولكنه اوحى لي بأنه متلهف الى أن يفحص بول· فلا تترددي يا تيسا، وأتوقع أن تردي عاجلا·"

كان بول اذ ذاك قد تحرر من آلامه، فأهملت تيسا أمر الرسالة· ولكن ها هي ذي الآلام تعاوده وقالت له:

"هل أغسل رأسك بالماء البارد؟ لقد خفف عنك هذا مرة من قبل!"

"فابتسم بول في وهن، وتمتم:

"أفعلي اذا شئت ياعزيزتي·"

وأدركت ماوراء كلماته، وضغط يدها، ثم قال:

"تبين لي أنه ما من شيء يخفف عني، ويجب أن أروض نفسي على تعود هذه الآلام وان كنت لا أفهم لها سببا·"

وسحبت يدها وقالت في رفق، وهي تحاول بدون نجاح أن تقصي عن ذهنها ما ورد في رسالة جو:

"أتود أن تخلد الى النوم؟ هل اتركك يا عزيزي؟"

فقال:

"لفترة وجيزة، فاني واثق من أن مابي سيزول بعد قليل ثم أردف:

"هذه الحياة كئيبة بالنسبة اليك. سنخرج الليلة لتناول العشاء في ماريه مونتي. أيروق لك هذا؟"

هكذا كان بول - منذ زيارتهما الى اطلال فوني - شديد الرعاية لها فبادرت قائلة:

"لا بأس، اذا كنت أحسن حالا يابول. أما عن حياتي فاني في كامل السعادة والقناعة لمجرد وجودي معك!"

* * *

وبعد ساعة كانت تيسا في الفناء المكسو بأشجار الصنوبر، تتمشى مشغولة البال، كانت سعيدة، ولكن، هل هو سعيد؟

ومرت الدقائق بطيئة، مليئة بالشجن، حافلة بالصراع بين عقلها وضميرها. كان جو متفائلا، لا هتمام الطبيب بحال بول وكان قلبها يصرخ ضد هذا الاتجاه، عندما ظهر بول وكأنه ماعانى من الصداع طيلة عمره، فطرحت عنها هواجسها وترددها، وخفت اليه وهي ترفع الشكر لله، وسألته:

"هل أنت أحسن حالا؟ انك تبدو بخير!"

واتجه الى مقعد، مسترشدا بعصاه، وجلس قائلا:

"اجل. زال الألم بمعجزة! لعله الحر!"

فقالت متشبثة بتعليله:

"أجل، قد يكون الحر هو السبب. هل أحضر لك شرابا؟".

قال:

"كلا يا حبيبتي، بل اقرأي لي."

ودخلت الدار لتحضر الصحيفة فاذا معها رسائل أحضرها تاكي من القرية، وكاد قلبها يتوقف اذ تبينت خط جو

على احداها وبيد مرتجفة فضتها، فوجدت فيها ورقة واحدة، بداها جو بدهشته لأنه لم يتلق منها ردا، ثم مضى يقول:

"اتصل بي الطبيب في الاسبوع الفائت ثم عاد يتصل هاتفيا اليوم، وبدا حسناً فهو كما قلت لك تواق لأن يفحص هذه الحالة. وقد الح في أن يرى بول وهذا ينبيء بأنه متفائل. فآمل ان تفعلي شيئا. ليس لك يا تيسا أن تحرمي بول من فرصة. اكتبي لي فورا."

وسحقت الرسالة في قبضتها؛ وتناولت الرسالة الأخرى فاذا بها من أبيها، ثم حملت الصحيفة القبرصية - التي تصدر بالانكليزية - وخرجت الى زوجها. وكانت الصحيفة ورقة واحدة، وسرعان ما أتت عليها ثم دفعت جهاز الراديو الى زوجها، تاركة له أن يهتدي الى المحطة التي يختارها، فانبعثت أنغام البزق خافتة، وتناولت تيسا رسالة أبيها؛ فاذا بها ينبئها بزفاف لوسيندا، متفاديا بكل لباقة أن يذكر ما اذا كانت أختها افتقدتها. كانت لوسيندا تعلم أن تيسا تعمل بالتدريس في قبرص، ولكن لم تكن لديها فكرة عن مكان بول. كانت تعتقد مثل الكثيرين أنه يعيش في عزلة، في احدى الجزر اليونانية. ومضى أبوها يقول:

"أما وقد ظهر أن زواجك موفق، الا ترين أن نطلع امك على السر؟ لقد كان الخداع من أجلها، لتجنيبها القلق، ولكني لا أرى داعيا - مادمت سعيدة - لأن تظل جاهلة بزواجك."

التفت اليها بول متسائلا:

"ماذا تفعلين؟ انك هادئة تماما!"

وكرهت أن تكذب عليه، ولكن الخطاب لم يكن يحتوي على ما يستحق أن تقرأه له، فقالت:

"انني أفكر فحسب!"

ولم تدر أكان صوته ينم عن فضول، أم أنها كانت واهمة، اذ سألها:

"فيما تفكرين؟"
وقالت صادقة في هذه المرة:
"في أبي وأمي."
ورفع حاجبيه في دهشة بسيطة، وقال:
"فيهما وحدهما؟ واخوتك، وأختك؟"
فقالت وقد بدأت تلتزم الحذر:
"أنني أفكر فيهم طبعا، ولكني في هذه اللحظة كنت أفكر في أبي وأمي.."
وصمت برهة، منصتا الى زقزقة العصافير، ثم سألها:
"ما رأيك في أن نزورهم؟ سيكون التغيير مبهجا لنا. ونستطيع كذلك أن نزور بعض الأصدقاء."
وحول رأسه نحوها، وكأنه ب[illegible]ة ما سيبصر اثر كلامه! فقالت:
"الأصدقاء؟ كلا لا أريد زيارة انكلترا."
فهتف:
"بتاتا؟ ولكن يا حبيبتي."
وأسرعت تقطع عليه الكلام قائلة بصوت مرتجف، وهي تحاول تمالك جأشها:
"ما عنيت هذا.. سنذهب الى انكلترا طبعا، ولكن ليس الآن يا بول، في العام المقبل!"
وتفرست في وجهه الأسمر القوي وكأن قسماته نحتت لتنم عن جمال ونبل، ولغير ما سبب واضح رأت العينين الثاقبتين تحدجانها في شيء من الضيق المتعالي، وسمعت لهجة الازدراء الخافتة التي كان يتحدث بها عنها الى جو في الحفلة التي أقامها هذا، في انكلترا. لقد أصبحت العينان تتواريان خلف نظارة قاتمة، وكان صوته يفيض حنانا - المفترض أنه موجه الى لوسيندا - حين قال:
"حسنا جدا يا حبيبتي، العام المقبل، اذا كانت هذه

رغبتك."
وغمرها الارتياح، لها أن تطمئن حاليا أما المستقبل... فلتدعه للغيب!

* * *

ووصل خطاب آخر من جو، في الاسبوع التالي.. لم يحاول جو فيه أن يجاملها، بل اتهمها صراحة بالانانية، فبادرت بالكتابة اليه في اقتضاب، ذاكرة أنه ما من شيء يمكن فعله وان من القسوة عرض بول على الطبيب، ليواجه في النهاية بأن لا أمل لعلاج حالته!"

* * *

كان حر نهار يوليو (تموز) قاسيا، فاقترحت تيسا أن يقوما بجولتهما على المتاجر بسرعة، ثم يغادران المدينة بسرعة، وكانا قد ذهبا الى نيقوسيا، لابتياع بعض الثياب لبول.
وجاء عامل أحد المتاجر لبول بقميص، فقالت تيسا:
"ان القميص أخضر، هل تريده أخضر؟"
فسألها:
"أي درجات الخضرة؟"

قالت:

"أخف قليلا من الزمردي!"

وحانت من تيسا التفاتة الى البائع، فاعتصر قلبها أن لاحظت أنه كان ينظر الى بول في دهشة يخالطها الرثاء، وكأنه يقول:

"لماذا يعتني هذا الأعمى نفسه بتعرف اللون؟"

ودفعت الى بول بقميص آخر، قائلة:

"هاك آخر أفضله عليك: انه زيتوني اللون، والقماش أفضل."

فتحسسته أصابعه ببراعة لا يعرفها سوى المكفوفين، وقال:

"نعم، هذا أجود ولكن، اخبريني باللون تماماً."

واختنق صوتها، وترقرقت الدموع في عينيها، ما رأت زوجها ابدا عاجزا الى هذا الحد، فقالت باقتضاب، وهي تلاحظ البائع من جديد:

"انه يناسبك!"

فقال:

"سآخذه اذاً، أية الوان أخرى هناك؟"

وامتدت أصابعه نحو مائدة العرض، فدفعت اليه بقميص واذا به يسألها:

"أهذا أزرق؟"

وارتعشت شفتاها، ولم تستطع الكلام، لماذا يداخلها هذا الشعور؟ لكم ابتاعا من أشياء - من قبل - ولكن بول كان دائما يعرف ما يبتغي تماما، وبادر البائع بالاجابة، هذه المرة:

"انه أزرق."

ثم عرض قميصا آخر، قائلا:

"هذا أرخص سعراً، ولكنه ذو لون جذاب."

فقالت تيسا:

"انه أرجواني!"

هتف بول: رباه! كلا سآخذ القميصين الآخرين."

وفيما هو يدس يده في جيبه ليخرج نقودا، ارتطمت كتفه بدمية كانت بجواره. ومن الواضح أنه لم يدر ماذا أوقع، واسرع البائع يرفع الدمية، بينما وقفت تيسا ترتجف من رأسها لأخمص قدميها، وهي تراقب وجه بول وقد تدافعت اليه الدماء، وتحسس الهواء ليتبين ما حدث، فنفضت عنها الجمود وقالت:

"لاشيء يا حبيبي.. لم يحدث أي ضرر."

فقال بصوت أجش:

"لنخرج من هنا، وعودي بي الى البيت!"

ولم يشأ الانتظار ليأخذ القميصين. والقت تيسا وهي تأخذ بيده تقوده الى الخارج بنظرة اعتذار للبائع.

* * *

ظلت ذكرى هذا الحادث تلازمه طيلة الطريق الى البيت، ورأته تيسا مرات يحجب الضوء عن عينيه، بالرغم من ارتدائه نظارته. كان من الواضح أن رأسه يؤلمه اذ توالت الاختلاجات على وجهه، وابيض ركنا فمه وقالت تيسا أخيراً:

"هناك مقهى يا بول. أتحب تناول شيء من القهوة؟"

وتوقعت أن يرفض، ولكنه لدهشتها وافق، وجنحت بالسيارة الى ظل بعض النخيل أمام المقهى، وخف لاستقبالها شاب يوناني أنيق، أخذ ينقل بصره بينهما في فضول، وهو يبتسم لهما، وجالت تيسا ببصرها داخل المكان. لم تكن ثمة نساء، بينما حملق فيها الرجال. ولكنها كانت قد اعتادت

www.liilas.com/vb3
Sarah

هذه النظرات، وقال بول وهو يتحسس موقع المقعد ويجلس:
"أرجو أن تحضر لنا قهوة، قدح قهوة تركية، وقدح قهوة بالحليب."

وقال الشاب، وهو يقدم اليهما القهوة:
"من أي أجزاء من انكلترا جئت؟" فأجابته تيسا. وتلكأ لحظات يجاذبها الحديث. وعندما آن أن ينصرفا، رافقهما حتى الباب وأخذ يلوح لهما حين انطلقت السيارة. كانت هذه الفترة قد ساعدت بول على التغلب على جراحه، ولكنه ظل حتى وصولهما الى البيت لائذاً بالصمت. وكانت تيسا كذلك واجمة، فان حرج زوجها آلمها كما لم يؤلمها شيء من قبل. كان عجزه وهو القوي الشخصية والبدن خليقا بأن يمزقه بقسوة!

وقال بول اذ دخلا البيت:
"سأرقد.. ولست أتوقع أن أنام، ولكن ناديني في موعد الشاي."

كان مهزوما، مستضعفا، فلم يداخل تيسا شك في مدى عذابه العقلي والبدني. وكانت الرسالة التي كتبتها لجو في حقيبة يدها، وقد شغلها ما حدث عن أن تسلمها للبريد فأخرجتها من الحقيبة، ومزقتها، والقت بها الى سلة المهملات. ثم كتبت رسالة أخرى، خشيت أن تتراجع عنها، فأسرعت الى القرية لتودعها البريد. وبمجرد أن فعلت وقفت تحملق في صندوق البريد - عند المقهى - وقد استولى عليها ذهول عجيب.

ولم تدر كم من الوقت قضت في وقفتها، ولكنها فجأة فطنت - بشعور مبهم - الى حملقة الرجال الجالسين امام المقهى يلعبون طاولة النرد حتى سائق الحافلة - التي أقبلت ببعض السياح - أخذ ينظر اليها، متغافلا عن سياحه. وتمهلت امراتان تعتليان حمارا بينما وقف عدد من الاطفال تحت شجرة وارفة ينظرون في استحياء، وكأنهم يتساءلون ما حصل لها

اذ وقفت تنظر الى صندوق البريد نظرات زائغة!

وتضرج وجهها، وتحركت في الشارع القروي الضيق، تحف به البيوت العتيقة التي كانت الزهور تتألق في حدائقها، وعبير الورد يتضوع حولها، وما لبث أن احتجبت الرؤية عنها وراء الدموع التي انبعثت من عينيها، أتراها كافحت طويلا لتظفر بحب زوجها، لا شيء الا لتفقده سريعا؟ ماذا يكون رد الفعل لديه ازاء خديعتها؟ لقد استغلت نكبته في بصره وعجزه لتظفر بما كانت تشتهي منذ التقائهما الأول واستبد بها الذعر، وهي تدرك أنها لن تقوى على أن تواجهه. لقد أوشك أن يعذبها حتى الموت مرة، وهو كفيل بأن يفعل ذلك مرة أخرى، ولكن تعذيبه - في هذه المرة - سيكون أقسى.. سيسوطها بعبارات الاستهجان والاستهزاء والازدراء. فلا بد أنه سيستشيط حنقا اذ يتبين أنه تزوج من فتاة لم يكن يميل اليها، بل كان يراها خلوا من الجاذبية في كل ناحية، وكانت تطارده بعينيها عندما كان خطيبا لاختها!

كلا، لن تستطيع أن تواجهه ابدا، ولكن ما الذي ينبغي أن تفعله؟ وأوحت اليها الغريزة بمهرب، خلال الطريق الذي هربت خلاله سابقا السعي الى عمل في الخارج. كان هذا هو المهرب الوحيد المفتوح أمامها. الطبيب قد لايستطيع مساعدة زوجها، وما من شيء يؤكد نجاح الجراحة اذا هو أجراها. ولكن عليها أن تستعد!

* * *

كان بول نائما، حين بلغت الدار، ولم يكن موعد الشاي

قد أقترب، فاستقلت السيارة وانطلقت الى كيرينيا وما كانت قد زارت النادي القروي من قبل، لكنها تعلم أن جميع الصحف الواردة من انكلترا فيه.

ولم يضايقها أحد بالسؤال عما اذا كانت عضوا بالنادي، حين دخلت واجالت بصرها، وما لبثت أن وجدت بغيتها، فجلست الى احدى الطاولات وأمامها ملحق التايمز التعليمي، وفي يدها قلم وورقة، وراحت تتفقد المناصب الشاغرة لمدرسين في: كندا.. استراليا.. فنزويلا.. هونغ كونغ..

أجل، هونغ كونغ!

١٠ - الضوء الجديد

ضوء النجوم فوق الجبل، والنسيم المتضوع بشذى الصنوبر، وقمر يسري في سماء صافية متألقة، وأصوات صراصير الحقل في هواء الليل الساكن، ما أكثر ما ينطبع في الذاكرة، وتيسا واقفة عند سياج سطح الدار، - مستغرقة في الأسى - ترى منظر أشجار السرو والصنوبر والزيتون والخروب والنخيل المتمايلة، وتردد لنفسها:

"غدا الرحيل ولا عودة!"

وحل الحنان محل الاسى في عينيها اذ وقعتا على بول يصعد الدرج، منتصب الرأس بقوامه الخفيف الحركة، الذي أثار في قلبها رعشة خوف، فدعت الله - في صمت - أن يكلل العلاج المقبل بالنجاح.. فأن جون ريد عندما فحصه في المستشفى بلندن - قبل أسبوعين - اطمأن الى أن العصب لم يصب، وان العلاج - بدون جراحة - كفيل بأن يرد النظر، ولقد قال في تحفظ لست أعد بشيء ... ني أجد ما يبرر التفاؤل بنتيجة العلاج الذي سأعطيك اياه.

ولم يتخذ بول قراره بعجلة خشية تصدع قلبه من جراء فشل جديد، فعاد الى قبرص دون أن يدرك (سوى جو) انهما زارا انكلترا. على أن بول لم يلبث - أزاء الحاح زوجته -

أن قبل أن يسلم نفسه ليدي جون ريد.

قالت تيسا:

"أنا هنا!"

وبلغ بول السطح، فوضع اصبعا على السياج، يسترشد به، حتى وصل الى تيسا وعقدت ذراعيها في ذراعيه، قائلة:

"رائحتك جميلة!"

فأرسل ضحكة صافية، لايثقلها هم، مما جعلها تدعو من جديد - في نفسها - الا يفشل العلاج وقال:

"هذه رائحة الكولونيا بعد الحلاقة!"

وتطاولت على أصابع قدميها، لتحك أنفها بخده قائلة:

"نعم.. أنها لطيفة!"

قال:

"وكذلك أنت!"

وطوقها بذراعيه، وقال:

"لن ألبث أن أراك قريبا، يا زوجتي العزيزة الحلوة!"

كانت في لهجته رنة غريبة، وهزت تيسا أفكارها لتفيق، لابد أن الغرابة منبعثة عن الاعصاب، والتوجس، ولكنها خلال الاسبوعين المنصرمين، خالت أنها تلمس هذه الرنة في صوته كلما تحدث عن العلاج المقبل، واحتمال استعادته بصره وغمغم:

"يا حبيبتي.. ياجميلتي.. لكم أهفو لرؤية وجهك!"

والتصقت به، وطوقت عنقه، أهي ليلتهما الاخيرة معا؟ آخر ليلة يضم فيها بين ذراعيه جميلته لوسيندا، قبل أن ينجلي عنه الوهم؟ ياجميلتي! أي [illegible] يلعبها [illegible]، أو لعلها [illegible]

ظلا في وقفتهما برهة، وكل منهما مستغرق في أفكاره، وسألت تيسا نفسها: "ترى ماذا يفعل لو أنه علم أنها حزمت معظم أمتعتها وأرسلتها الى أنكلترا فعلا؟" ماذا يقول لو

علم أنها - في اليوم التالي لدخوله المستشفى في لندن - كانت في مقابلة بطرف آخر من لندن، من أجل منصب سينقلها بعيدا عنه الى الابد!"

وقال بول أخيرا:

"حدثيني عن الليل، أحس الهواء عليلا ونقيا ومعطرا. أزيز الصراصير اسمعه، وصيحات خفاش الفاكهة، ولكن ماذا هناك غير ذلك؟"

فقالت:

"بدر مكتمل يتقلب بين السحب، أجل هناك سحب يا بول ولكنها فضية. والنجوم برك دقيقة من البلور، ولون السماء بين السحب أرجواني عميق، تتخلله أحيانا مسحات من اللون البنفسجي الزاهي، أحسب مصدرها شعاع القمر وهو يتنقل بين السحب المتباينة الكثافة. وسكتت، اذ أفلتت منه ضحكة صغيرة، وقال:

"سواء أبصرت أم لم أبصر، فستظلين دائما يا حبيبتي تصفين لي هذه الاشياء!"

دائما، ما أقل ما كان يعرف! ومضت في الوصف قليلا، ثم أمسكت، وضحكت قائلة:

"أنها ليلة شاعرية حقاً يابول!"

كان توتر اعصابها قد بدأ يؤثر على صوتها، كانت عاقدة العزم على أن تعيش هذه الليلة بالذات، وتكتنزها، وتنسى ماقد تأتي به الأيام، من لوعات، ومن سنين خاوية! وتحسس بول وجهها وعينيها كان يتوقع أن يلمس دموعا، وسألها:

"ماذا بك يا غرامي؟"

"لاشيء.. ما الذي يدعوك للسؤال؟"

"صوتك، صوتك العذب، فيه حزن!"

فاصطنعت ضحكة، وقالت:

"ليس حزنا وأنما أنا قلقة بطبيعة الحال."

فتساءل:

"بشأن العلاج؟ مهما تكن النتيجة، فسيظل كل منا للآخر."

فتمتمت، بالاعتداد الذي تدرك انه يرتقبه منها:

"نعم يا بول، كل منا للآخر."

قال:

"ولو اخفقت." ووضعت اصبعا على شفتيه، فنحى يدها بلطف ليتم كلامه:

"فستظلين تبصرين لي، وترشدينني."

فأهابت به ضارعة:

"لا تتكلم عن الاخفاق، الطبيب كان شديد التفاؤل، ذاكراً أن تغيراً ما قد حدث وأنه بادرة أمل."

فقال محذرا:

"خطر الفشل موجود دائما في مثل هذه الحالات، انني مليء بالامل طبعا، لكني - في الوقت ذاته - عميق الادراك بأنها - مقامرة!"

مقامرة وخسارة بول فيها كسب لها هي! ولكنها لم تكن راغبة في الكسب، واغمضت عينيها، يجب ألا تبكي الليلة، الليلة بالذات! وأراحت رأسها الى كتف زوجها، فضمها محتويا اياها وكأنه يحميها، ولبثا هكذا فترة طويلة.

* * *

غادرا البيت مبكرين في الصباح التالي، وقد ران على تيسا استقرار حزين لازمها طيلة الاسبوعين الاخيرين، ولكنها

لم تسمح لدموع القنوط أن تنطلق الا حين أوقفت السيارة في المطار، عند عودة بول سينقل السيارة غيرها، شخص آخر سوف يقودها عند عودة بول، أو لعل بول نفسه هو الذي سيقودها، لأول مرة منذ أن حرمه الحادث حبيبته وابصاره!

استقبلهما جو في مطار لندن وقبل أن تفطن تيسا لشيء كانت تغادر زوجها في المستشفى. فقد كان لزاما أن يمكث تحت الملاحظة لمدة قد تكون أسبوعين، ولتيسا أن تزوره يومياً.

سألها جو - وهو يقلها بسيارته من المستشفى - عن شعورها ازاء العلاج، فقالت:

"انني راحلة.. أعني اذا كان العلاج ناجحا. وأنني لأشعر بأنه سيكون ناجحا!"

"هكذا أشعر أنا أيضا ولكن، ماذا تقصدين بأنك راحلة؟"

ثبتت عينيها على الطريق الممتدة، وقالت:

"بول لن يريدني، فيجب أن أرحل قبل نزع الضمادات!"

قطب جو جبينه، وقال:

"ليس لك أن تهربي من زوجك هكذا. الى أين تذهبين؟"

"تقدمت لمنصب في الخارج."

"بحق السماء كيف تعرفين أن بول لن يريدك؟"

كان وجهها شديد الشحوب، واستعادت كفاحها ونضالها لتظفر بصفح زوجها عنها لشيء لم تكن مرتكبته، وشعرت بسخرية لدورها، فقد أستعادت للوسيندا الحب الذي فقدته بالجحود والقسوة، والاسوأ ان لوسيندا ما كانت لتفيد من هذا الآن، وهذا ما زاد تيسا مرارة وحسرة، وتمتمت:

"انه يحب لوسيندا؟"

"ما جدوى هذا له الآن؟"

قالت مصححة:

"تعني بل أي خير سيعود عليه من ذلك! اذا لم يكن قادراً

على أن يحظى بلوسيندا فلا يعني هذا انه سيرتضي بديلة بها ويظل زوجا لي!"

"بديلة؟ ان اليونانيين لايقصون عنهم زوجاتهم بسهولة، فالطلاق نادر بينهم."

وفكرت قليلا، ثم قالت:

"ربما لايطلقني، ولكنه لن يبتغي العيش معي، من جراء كل هذا."

فهز كتفيه، مدركا أنه لن يصل الى اقناع تيسا بشيء، وهي في حالة كهذه، وقال بعد قليل:

"لنتناول شيئا من الطعام قبل أن أقلك الى البيت."

طعام؟ وشرد ذهنها الى ماريه مونتي، والامسيات الشاعرية، عندما كانت تتناول العشاء مع بول هناك، والأضواء، والموسيقى، والجزر الصخرية والامواج المتهالكة على الشاطىء وضوء القمر ينعكس عليها. ترى هل سيذهب بول الى هناك مرة أخرى؟ طبعا، فقد كان ذلك المكان مفضلا لديه. ولكنه - في المرة المقبلة - لن تكون معه لتبصر له، وان كان لايحتاج اليها، اذ ذاك.

أقلها جو الى البيت بعد أن تناولا الطعام، ووعدها بأن يوافيها ليصطحبها للنزهة من ان لآخر، خلال الأسبوعين التاليين، فما ينبغي أن تجلس في البيت مستسلمة للاكتئاب!

وما كان ثمة وقت للاكتئاب الا في الليل، عندما يزوغ منها النوم. ذلك انها كانت قد ظفرت بالمنصب الشاغر في هونغ كونغ، وقيل لها أن عليها الذهاب بمجرد أن تدبر أمورها، وكان موعد رحيلها يتوقف على مدى سرعة استعادة بول بصره، فقد اعتزمت أن تبقى مع زوجها حتى اللحظة الأخيرة، فلا تتركه الا قبيل نزع الضمادات عن عينيه. لذلك كانت تشغل كل وقتها بالاستعداد للرحلة، واكمال تدابير الاستقرار بعدها، وبزياراتها للمستشفى، ولكم حاولت - خلال العلاج -

ان تظفر بمعلومات من الطبيب، ومع أنها لم تستطع استدراجه، شعرت بتفاؤل.

* * *

وفي اليوم الذي حددته للرحيل، سمعت تيسا - في ابهام - صوت سيارة تتوقف، وكانت مستغرقة في عملية حزم كل مستلزماتها التي تناثرت على أرض غرفة الجلوس في بيت والديها، فضلا عن الكتب، وأدوات التعليم والشرح، ووقفت أمها في الباب ترقب الفوضى، وتهز رأسها مستنكرة ثم قالت في أسى:

"ترى كم مرة سنشهد كل هذا؟"

"أنا جوابة آفاق يا أماه.. وأحسبني سأظل هكذا حتى تقعدني السن عن العمل في الخارج!"

ماذا تراها تفعل اذ ذاك، بعد عشر أو خمس عشرة سنة؟ سيكون الجرح قد اندمل ولابد فيتسنى لها أن تستقر في عمل مريح في بلادها. ترى أين سوف يكون بول؟ هل سيمكث في انكلترا أو يعود الى قبرص؟ من المحتمل أن يكون قد طلقها، فلديه كل ما يبرر هذا؟ كانت تشعر بأنه سيبتغي الخلاص منها بأسرع ما يستطيع؟

لهذا دبرت لنفسها أن تسافر في مساء اليوم بالذات! قالت الام:

"بماذا استطيع أن أساعدك يا عزيزتي؟"

كانت محزونة، ولكنها رصينة. لقد أصبحت على علم بكل شيء وقد بذلت وزوجها كل جهد ليثنيا ابنتهما عن

هربها المتعجل، ليقنعاها بالبقاء بعد ازالة الضمادات عن عيني زوجها ؛ لتتبين كيف يكون تصرفه ازاء خديعتها ، ولكن تيسا كانت صلبة العناد، وما استطاعت الأم أن تلين هذا العناد بدموعها، فتقبلت قرار تيسا، تاركة اياها تشكل مصيرها على هواها، أما الأب فلم يتراجع بسهولة، وقالت تيسا له ضارعة:

"لن ارتضي أن أواجهه يا أبي، هذا كل ما في الأمر، لقد كان ينفر مني، حتى قبل أن أؤذيه."

"ما كان في ما فعلته ايذاء!"

"أليس في أستغلال عماه لأظفر بما أردت أيذاء؟"

"ما ادراك بما سيكون عليه شعوره؟"

"أنني أعرف ما سيشعر به حين يعلم بأنه تزوجني أنا!"

ولاذ الأب بالصمت، فساور تيسا الارتياح، بيد أن امارات غامضة تبدت عليه، ولم تكن قد سنحت لتيسا فرصة - في اليومين السابقين - لأكثر من مناسبة واحدة، فاجأته فيها يتأملها خلسة ثم يهز رأسه، وكأنه شارد الذهن في مشكلة مزعجة تبعث فيه شيئًا من الخوف.

وقالت أمها، وهي بعد واقفة بالباب:

"ألا بد من هذه العجلة؟"

"سيأتون لنقل الأشياء في الصباح، لهذا سأستقل طائرة الليلة!"

كان لابد أن تذهب الى المطار في الساعة الخامسة. وكان بول يرتقبها في المستشفى وقد أوصاها الطبيب بالحضور في الساعة الرابعة لتكون الى جوار بول حين ينزع الضمادات عن عينيه، وقال الطبيب وفي عينيه وميض انتصار:

"طلب زوجك هذا بوجه خاص، فوجهك هو أول ما يريد أن يبصره."

وجه لوسيندا .. الوجه الجميل .. وجه المرأة التي أحبها!"

ألقت تيسا نظرة على الساعة، فاذا بها الواحدة تقريبا،

ما هي الا ثلاث ساعات حتى يبصر بول، لقد ودعته بالامس، وان لم يدر انها كانت تودعه، وقال لها مرات:

"انك هادئة صامتة يا عزيزتي."

وكان يلوح لتيسا ان في صوته لهجة السؤال، وان في تصرفه ترقبا عجيبا، فكانت تجيب في كل مرة:

"انه الانفعال.. تصور أنك في هذا الوقت من الغد، ستكون قادراً على النظر!"

كان لزاما أن يبقى في المستشفى - بعد نزع الضمادات - أياما قلائل، وأن يرتدي نظارة سوداء لفترة من الزمن، حماية لعينيه من الوهج.

"نعم سأكون قادرا على أن أرى.. أراك يا زوجتي الحلوة الجميلة!"

وجثم على قلبها شعور من المرارة. وسرح ذهنها الى لوسيندا التي سعدت بالزواج من شخص آخر، والى بول وما سيصيبه من صدمة، والى نفسها.. وهي العاشقة في استماتة، ولكنها لاتحظى بحب محبوبها. واستطاعت تمالك نفسها ولكنها أحست بقلبها يموت أنها النظرة الأخيرة وهي تلتفت اليه قبل أن تخرج وتغلق الباب. وملأت الدموع عينيها، وتعثرت وهي تجتاز الردهة، لقد ذهبت وغاب بول عن حياتها الى الابد!

* * *

وردها الى الواقع صوت أمها تهتف برقة:

"تيسا، ايتها العزيزة!"

وانبعث في تلك اللحظة رنين جرس الباب، فاطلت من النافذة كانت هناك سيارة أجرة في الخارج، ولكنها لم تلمح الشخص الذي نزل منها. كان الأب قد فاجأهما بالعودة الى البيت في موعد الغداء - على غير عادته - زاعما أنه شعر بوعكة.. غير أنهما حارتا اذ رأتاه في روح معنوية طيبة؛ حتى أنه راح يغني بصوت خفيض وهو في الحمام.

لاحت من تيسا نظرة الى المرآة، فاذا شعرها مشعث وأنفها لامع، وثوبها، كان صدره متسخا بشكل واضح، ووجمت مكتئبة لمظهرها. وأحست بأنها تود أن تهرب بعيدا، اميالا بعيدا عن الغرفة والفوضى المحيطة بها، وكل شيء حتى عن حياتها!

وقطبت أمها جبينها في حيرة، اذ سمعت صوت زوجها يسأل:

"اذن، فقد جئت؟"

وتساءلت امها:

"ترى من يكون هذا؟"

فهزت تيسا رأسها في صمت، وهي تجمع بعض أشيائها، وسمعت صوت ابيها يقول:

"انها هنا.. كنت قلقا خشية الا يسمحوا لك بالمجيء!"

وتبعت ذلك غمغمة غير واضحة بين الرجلين، فدبت الحياة في تيسا، وأسرعت تجر اليها الصناديق والحقائب في نصف دائرة، كان تصرفا غير ارادي، وكأنما شاءت أن تقيم حاجزا دفاعيا، وفطنت الى أن شكلها ولابد يثير الضحك، وسط هذه الفوضى.

ورفعت رأسها - وهي متقطعة الانفاس - فاذا بول في فراغ الباب، والنظارة السوداء تحجب عينيه! ومع ذلك أحست بأنه يجيلهما في الغرفة غير مصدق، قبل أن تستقرا على وجه زوجته المحتقن بالدم. وكانت السابقة الى الكلام، اذ

هتفت بصوت مشروخ ومرتجف:

"بول!"

ومع أنها نطقت باسمه، فان ذهنها لم يكد يستوعب واقع وجوده وأردفت:

"هل جئت تنشد، لوسيندا؟ ولكنها أنا.."

وتقطع صوتها مخلدا الى الصمت.. كيف جاء؟ وسمعته يقول:

"بل جئت أنشد زوجتي!"

وارتجفت وهي تقول:

"نعم، اعرف هذا.. ولكن يا... بول، انك.. أنا .. انك متزوج من.."

وأمسكت تبحث عن كلماتها، ثم قالت:

"أوه يا بول.. أنا لست لوسيندا!"

وحجبت وجهها براحتيها، فأزال النظارة عن عينيه لحظة، ثم تقدم منها، وتوقف عند الحاجز الذي أقامته، وقال في هدوء:

"أنني أرى انك لست لوسيندا!"

ازاحت يديها عن وجهها، ونسيت - للحظة خاطفة - كل شيء الا أن زوجها استرد بصره... وامتزج صوتها العذب بعجب وحنان طاغيين، وهي تهتف:

"انك تبصر!"

أنهما العينان الداكنتان اللتان أسرتا قلبها يوما. العينان اللتان أوسعتاها يوما ازدراء وعدم اكتراث.. العينان اللتان كانتا تفيضان بالحب والحنان للوسيندا.. واعادت تقول:

"انك تبصر!"

انطلقت الكلمتان مع زفرة عميقة.. لقد ضاع زوجها منها الى الابد، ومع ذلك فما كانت تملك سوى أن تفعل ما فعلت، لو دعيت لذلك مرة أخرى. وقالت:

"لماذا نزعوا الضمادات قبل الموعد؟ كيف.. ما الذي دفعك للمجيء؟"

وقبض الخوف على فؤادها، اذ بدا لها أن عينيه كانتا ترمقانها بقسوة وحدة.. ولم يجبها على الفور. وتبينت لدهشتها أن الكلمات استعصت عليه.. وتحركت شفتاه، ولاحظت أن جانب صدغه ينبض بشكل غريب.. أكان من الغضب بحيث امتنع عليه الكلام؟ وانحرفت نظراتها الخائفة الى والديها، فاذا بهما بعد واقفان. وتساءل أخيرا في صوت خافت:

"ما كل هذا؟ أتعتزمين السفر؟"

وندت عنها شهقة خافتة، أحست بأنه غير واثق من نفسه وقالت:

"انني راحلة الى هونغ كونغ."

"أصحيح هذا؟"

واعاد النظارة الى مكانها أمام عينيه، وهو يجيل بصره فيما حوله، أين فورة غضبه؟ على العكس، سمعته يقول:

"ولماذا هونغ كونغ؟"

"انهم بحاجة الى مدرسين."

وسكتت، فقد أصبح الموقف بأكمله غير معقول، وأحس أبوها بذلك، فقرر أن يخف لنجدتها، وقال وزوجته تنقل بصرها بينهما تكاد لا تفقه ما يجري:

تيسا يا ابنتي.. أنا ذهبت لأرى بول في المستشفى هذا الصباح. وأخبرته بكل شيء، فاقنع الطبيب بأن يرفع الضمادات. ليس هذا فحسب، بل بأن يسمح له بالخروج ساعة، ليأتي قبل أن ترحلي!"

وصاحت السيدة بلين في عجب:

"هل ذهبت الى المستشفى!"

وتجاهل السيد بلين دهشتها، وقال لبول:

"أظنك الآن قادرا على أن تتولى الموقف!"

وشاعت في وجه بول ابتسامة، وقال:

"شكرا.. نعم، بوسعي أن أتولاه!"

وازاح السيد بلين الحقائب والصناديق جانبا، ثم انسحب مع زوجته، وما هي الا لحظات، حتى كانت تيسا بين ذراعي زوجها، ولكنها حائرة وقد تسارعت دقات قلبها بشدة.

وغمغمت، وهي لا تكاد تصدق:

"أنا؟ أنا حقا؟"

ورفعت عينيها وهما تشرقان بالفرح، واستأنفت:

"منذ متى كنت تعرف؟"

"ساورني أول شك، عندما قرأت لي أحد خطابات والدك!"

"أجل أتذكر هذا لقد ظللت يوما أو يومين خائفة!"

"خائفة، اذا فلا بد أن ارتيابي سرى اليك بطريقة ما.. فما أظنني كشفت عنه."

وتحسست يده جبينها بحنان، وتابع حديثه:

"وعرفت عن يقين، عندما هاجمت ذلك الثعبان!"

وتراجع قليلا ليتأمل عينيها، وقال:

"لعلك لم تكوني تعرفين أن لوسيندا ترتعب من الثعابين. اذ اصطحبتها مرة الى حديقة الحيوانات، واضطررنا الا نبقى في بيت الافاعي لحظة، لأنها تجمدت من الرعب. وفي مرة أخرى كنا في الريف، فرأينا ثعبانا صغيرا، رفيعا، من النوع الذي لا يؤذي.. واذا بلوسيندا تصرخ، وتجري الى السيارة فلم أفلح بعد ذلك في اقناعها بمغادرتها. وهكذا ترين يا حبيبتي، انني أدركت أن التي انقذتني من الثعبان لم تكن لوسيندا!"

قالت بدون تفكير:

"ولكن.. اذا كانت تحبك، فهي خليقة بأن تنسى خوفها عني، يكون خوفها من أجلك أنت وحدك!"

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وقال في ازدراء:

"أرى ألا نتكلم بعد الآن ابدا عما تسمينه حب اختك!"

فانكمشت في احضانه، وارسلت زفرة طويلة، راحت تردد خلالها:

"كلا.. أهي أنا.. أنا حقا؟"

فرفع وجهها باصبع حانية، وقال:

"أهذا يدهشك؟ ما أقل ما تعرفين نفسك.. انك أحلى وأروع زوجة يستطيع أن يحظى بها رجل، ولست أدري لماذا اخترتني من دون الآخرين لتجعليني أسعد رجال العالم حظا؟"

وكان يتحدث بتواضع غير معهود فحاولت أن تمنعه ولكنه تجاهل محاولتها، وقال:

"كيف كنت بهذه الحماقة في البداية؟ كنت اذ ذاك أكثر عمى مما أصبحت بعد ذلك، اذ لم أميز بين الذهب والنفاية! وكنت مفعما بالكراهية والاشمئزاز عندما جئتني، معتقداً انك لوسيندا، ومع ذلك شعرت كذلك بالانتصار، لأنني كرهتها منذ اللحظة التي نبذتني فيها، وعندما عرضت أن أتقبلها - اذا عادت - وأغفر لها، كان ذلك أملا في أن تتاح لي فرصة الانتقام -.. كان أملا واهيا، اذ كنت قد عرفت لوسيندا على حقيقتها، لذلك فلك أن تتصوري كم كانت دهشتي عندما جئت تسألينني الصفح!"

وأمسك قليلا، وقطب ثم أردف:

"لكم ألوم نفسي! كان ينبغي أن أعرف على الفور أن التي جاءت لم تكن لوسيندا. ولكنني كنت مفعما بكراهية سوداء نحوها، فلم أستطع أن أفكر الا في الانتقام، اعني أن أجازيها باضعاف ما فعلته بي!"

وكف عن الكلام اذ أحس بها ترتجف بين يديه، وقال:

"لا ترتجفي يا غرامي... سأعوضك عما فات، فلا تخشي شيئا!"

ابتسمت ولمست وجهه، وهي تقول:

"ما من داع لتعويض ما، لاتلم نفسك يابول فالواضح انك كنت راغبا في الثأر.."

وتذكرت تعليق لوسيندا وهي تصف ما عرضه بول من صفح، بالغرور والغطرسة. ما أقل ما كانت لوسيندا تعرف عن أنه ما عرض الصفح الا أملا في يوم يتمكن فيه من أن يسكب نقمته السوداء عليها!

* * *

وبعد برهة، خطرت لها فكرة أخرى فهتفت:

"بول بعد حادث الثعبان، عاملتني بخشونة، لفترة قصيرة أكان هذا غضبا من انك خدعت؟"

فأومأ برأسه، وقال:

"لقد كرهتك في البداية، أكثر مما بغضت لوسيندا، كما اعتقد. لانك بتصرفك جسمت عجزي وقلة حيلتي، وما اقسى ما يحدثه هذا من ألم، أتتمادى هذه الفتاة الى درجة الزواج مني، والعيش معي، بدون أن اعرف أنني مخدوع؟ هذا ما يجرح الشعور جرحا قاسيا، حتى اصطبغ كل شيء بلون الدم، ولذلك لذت بحجرتي الخاصة، أملا في أن أجعلك تتعذبين، لأن حبك لي كان واضحا، ولكني حين أطلت التفكير في مجيئك لتتزوجي وتعني برجل أعمى، عندما فكرت في حبك وحنانك وكيف حاولت أن تتقاسمي عينيك معي، وان تري لي.. اذ ذاك تبينت مدى ما انحرف اليه عقلي. وما استطعت أن أعاقبك عن جرم لوسيندا، وعن ذنبك كذلك!"

وتوقف عن الكلام، ثم أردف:

"انك بحبك ولطفك قدتني لأعود الى العقل يا لصبرك، وأملك في أن نسعد معا يوما ما !"

وسكت، وهز رأسه، وعاد يقول:

"كنت استحق الدرس يا أعز الناس، لو أنك تركتني فبادرته قائلة:

"ما كنت لأفعل هذا ابدا ولن أفعله. لقد أدرك جو فتورك، ولكن أيأمنا لم يستطع الاهتداء الى سبب، الآن أفهم السبب طبعا."

وسكتت لحظة مترددة، ثم قالت:

"اذا كنت عرفت أنني لست لوسيندا يا بول، فلماذا لم تقل شيئا ؟"

"كرهتك في بادئ الامر لقاء خدعتك، كما قلت، فلم أكن ابتغي في عقلي المتلوي سوى أن ازيدك ايلاما وايذاء، كنت أقول لنفسي صب ايذاءك هذه المرة على تيسا عقابا لها على الزواج منك. ثم عندما فطنت في وقت لاحق، الى مدى ميلي اليك - واني لأدري الآن انني ظللت فترة أقاوم هذا الميل وأناضله! ملأني الخوف من أنك قد تشعرين بالذنب وبالحرج، اذا ما كشفت عن معرفتي بأنك لست لوسيندا، فتتركينني. واذ اكتشفت - في تلك الاثناء - انني لا أستطيع أن أعيش بدونك، لذت بالصمت!

وأطل عليها - من علياء قامته - مبتسما في حب، وأردف:

"بل داخلني الأمل - يا أعز الناس - في انك ستخبرينني بنفسك!"

قالت تيسا بصوت خافت:

"الان أرى أنك كنت تريد ذلك."

فقد تذكرت الترقب العجيب الذي لاحظته على سلوكه، في زيارتها الأخيرة للمستشفى!

"كنت أريده.. ويقينا انني كنت سأكشف لك عن معرفتي،

لو خطرت لي اتفه فكرة عما كنت تتأهبين لفعله.. هونغ كونغ؟ لقد فعل أبوك خيرا اذ زارني فلو أنك جشمتني عناء تعقبك الى هونغ كونغ لعاقبتك عقابا لا ينسى؟"

وانكمشت تيسا ملتصقة به، وغمغمت في حبور:

"هل كنت ستتبعني الى هونغ كونغ؟"

قال وصوته ينضح بالانفعال العاطفي:

"كنت اتبعك الى أقصى اطراف الأرض!"

وللمرة الثالثة رأته تيسا يونانيا قحا، قويا، مشبوب العواطف، مسيطرا الى أقصى أطراف الارض.. وما وراءها!

www.liilas.com/vb3
Sarah